علىٰ أنه تعالىٰ بصفاته ليس كالبشر، نفياً للتشبيه عقيب الإثبات، يعني: أن الله تعالىٰ وإن وُصف بأنه متكلم، لكن لا يوصف بمعنىً من معاني البشر التي يكون الإنسان بها متكلماً، فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل: باللبن الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه. والمعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً. وسيأتي {=١٣٤} في كلام الشيخ: (ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه). وكذا قوله: (وهو بين التشبيه والتعطيل) {=٤٠٥} أي: دين الإسلام، ولا شك أن التعطيل شر من التشبيه، بما سأذكره {=١٣٤'} إن شاء الله تعالىٰ. وليس ما وصف الله به نفسه ـ ولا ما وصفه به رسوله ـ تشبيهاً، بل صفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

وقوله: **(فمن أبصر هذا اعتبر)** أي: من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف، ونفي التشبيه، ووعيد المشبه؛ اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار.

٣٥ ـ قوله: (والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة]. وتفسيره علىٰ ما أراد الله تعالىٰ وعَلِمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال، ومعناه علىٰ ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله ﷻ ولرسوله ﷺ وردَّ علم ما اشتبه عليه إلىٰ عالمه)(١/١٥٩).

ش: المخالف في الرؤية الجَهْميةُ والمعتزلةُ ومن تبعهم من الخوارج والإمامية. وقولهم باطل مردود بالكتاب والسُّنّة. وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلىٰ السُّنّة والجماعة.

"وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلِّها، وهي الغاية التي شمَّر إليها المشمِّرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحُرِمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون"{حادي ١٩٦}.

وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من الأدلة قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾

(١/١٥٩) {في مبحث الرؤية هذا: ما كان معزواً لصفحات مجردة عن ذكر مصدر فهي من «حادي الأرواح» لابن القيم}.

[القيامة]. وهي من أظهر الأدلة. "وأما من أبىٰ إلا تحريفها بما يسميه تأويلاً: فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب، أسهل من تأويلها علىٰ أرباب التأويل. ولا يشاء مبطل أن يتأوّل النصوص ويحرِّفها عن مواضعها؛ إلا وجد إلىٰ ذلك من السبيل ما وجده متأوّل هذه النصوص.

وهذا الذي أفسد الدنيا والدين. وهكذا فعلت اليهود والنصارىٰ في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم. وأبىٰ المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكم جنىٰ التأويل الفاسد علىٰ الدين وأهله من جناية. فهل قُتل عثمان {٤٧ق هـ ـ ٣٥هـ} رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد؟! وكذا ما جرىٰ في يوم الجمل {٣٦هـ}، وصِفِّين {٣٧هـ}، ومقتل الحسين {٤ ـ ٦١هـ}، والحَرَّة {٦٣هـ}؟! وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة(=٢٦٤)؛ إلا بالتأويل الفاسد؟!

وإضافة النظر إلىٰ الوجه، الذي هو محله في هذه الآية، وتعديته بأداة (إلىٰ) الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل علىٰ خلاف حقيقتة(٢/١٥٩) {و} موضوعه: صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلىٰ الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات، بحسب صِلاته وتعديه بنفسه: فإن عُدِّي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار، كقوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣]. وإن عدي بـ(في) فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف]. وإن عدي بـ(إلىٰ) فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. فكيف إذا أُضيف إلىٰ الوجه الذي هو محل البصر؟ وروىٰ ابن مردويه {٣٢٣ ـ ٤١٠هـ} بسنده إلىٰ ابن عُمَرَ قال: قال رسول الله ﷺ ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢﴾ قال ـ: «**من البهاء والحُسن**» ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾، قال: «**في وجه الله** عز وجل»(١٦٠) * عن الحسن قال: نظرتْ إلىٰ ربها فنُضِّرت بنوره * وقال أبو صالح {ـ ح ١٢٠هـ} عن ابن عباس رضي الله عنهما، [﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾، قال: تنظر إلىٰ وجه ربها عز وجل * وقال عكرمة {٢٥ ـ ١٠٥هـ}: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٞ ٢٢﴾، قال: من النعيم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ قال: تنظر إلىٰ ربها نظراً، ثم حكىٰ عن ابن عباس مثله]. وهذا قول كل مفسر من أهل السُّنّة

(٢/١٥٩) في {المطبوع: حقيقة}.

(١٦٠) **ضعيف جداً**، لأن في إسناده ثوير ابن أبي فاختة، كذبه الثوري، وجزم الحافظ في «التقريب» بضعفه. (انظر: مقدمة الطبعة ~~الثانية~~ {الثالثة} ص٤ ـ ٥).

والحديث"{٢٠٤}. "وقال تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق]. قال الطبري: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك {١٠ق هـ ـ ٩٣هـ}: هو النظر إلىٰ وجه الله ﷻ"{٢٠١}. "وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس]، فالحسنىٰ: الجنة، والزيادة: هي النظر إلىٰ وجهه الكريم، فسّرها بذلك رسول الله ﷺ والصحابة من بعده، كما روىٰ **مسلم** في «صحيحه» {١٨١} عن صهيب {٣٢ق هـ ـ ٣٨هـ}، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس]، قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادىٰ مناد: يا أهل الجنة! إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يُثقِل موازيننا ويبيِّض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة**»(١٦١)" {١٩٩}. ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أُخر، معناها: أن الزيادة النظر إلىٰ وجه الله ﷻ. وكذلك فسّرها الصحابة رضي الله عنهم. روىٰ ابن جرير [ذلك] عن جماعة، منهم: أبو بكر الصديق {٥١ق هـ ـ ١٣هـ} رضي الله عنه، وحذيفة {ـ ٣٦هـ}، وأبو موسىٰ الأشعري {٢١ق هـ ـ ٤٤هـ}، وابن عباس رضي الله عنهم.

"وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين]. احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة بهذه الآية علىٰ الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني {١٧٥ ـ ٢٦٤هـ} عن الشافعي. وقال الحاكم {٣٢١ ـ ٤٠٥هـ}: حدثنا الأصم {٢٤٧ ـ ٣٤٦هـ}، حدثنا الربيع بن سليمان {١٧٤ ـ ٢٧٠هـ} قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين]. فقال الشافعي: لما أن حُجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل علىٰ أن أولياءه يرونه في الرضا"{٢٠١}.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، وبقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام]؛ فالآيتان دليل عليهم:

"**أما الآية الأولىٰ**: فالاستدلال منها علىٰ ثبوت رؤيته من وجوه: **أحدها**: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته؛ أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال. **الثاني**: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

(١٦١) صحيح، ورواه الترمذي {(٢٦٨٩)} وابن ماجه {(١٨٧)} وأحمد {٤/ ٣٣٢} نحوه عن صهيب رضي الله عنه، وهو مخرج في «ظلال الجنة» (٤٧٢).

[هود]. **الثالث**: أنه تعالىٰ قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: إني لا أُرىٰ، أو لا تجوز رؤيتي، أوْ لستُ بمرئي. والفرق بين الجوابين ظاهر. ألا ترىٰ أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاماً فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: أنه لا يؤكل، أما إذا كان طعاماً صح أن يقال: إنك لن تأكله. وهذا يدل علىٰ أنه سبحانه مرئي، ولكن موسىٰ لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قُوىٰ البشر فيها عن رؤيته تعالىٰ. يوضحه **الوجه الرابع**: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]. فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خُلق من ضعف؟! **الخامس**: أن الله سبحانه قادر علىٰ أن يجعل الجبل مستقرّاً، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام. والكل عندهم سواء. **السادس**: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فإذا جاز أن يتجلىٰ للجبل، الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلىٰ لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟! ولكن الله تعالىٰ أعلم موسىٰ أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف. **السابع**: أن الله كلم موسىٰ وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة؛ فرؤيته أولىٰ بالجواز. ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما. وأما دعواهم تأبيد النفي بـ(لن) وأن ذلك يدل علىٰ نفي الرؤية في الآخرة: ففاسد، فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل علىٰ دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أُطلقت؟! قال تعالىٰ: ﴿۝٩٣ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ [البقرة]، مع قوله: ﴿۝٧٦ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف] "{١٩٧}". ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك. قال تعالىٰ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ [يوسف:٨٠]. فثبت أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد.

قال الشيخ جمال الدين ابن مالك {٦٠٠ ـ ٦٧٢هـ} رَحِمَهُ اللَّهُ {من الرجز}:

ومن رأىٰ النفي بـ(لن) مؤبدا ... فقوله اردد وسواه فاعضدا

"**وأما الآية الثانية**: فالاستدلال بها علىٰ الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو: أن الله تعالىٰ إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به، وإنما يمدح الرب تعالىٰ بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفي السِّنَة والنوم، المتضمن كمال

القَيُّومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء، المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير، المتضمن كمال الربوبية والألوهية وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفي الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه، المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل، المتضمن لكمال ذاته وصفاته. ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فإن المعنىٰ: أنه يُرىٰ ولا يُدرك ولا يُحاط به، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام]، يدل علىٰ كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يُحاط به، فإن (الإدراك) هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد علىٰ الرؤية، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء]، فلم ينف موسىٰ الرؤية، وإنما نفىٰ الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالىٰ يُرىٰ ولا يُدرك، كما يُعلم ولا يُحاط ﴿بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه]، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية"{٢٠١"}، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية. بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها علىٰ ما هي عليه.

"وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه، الدالة علىٰ الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب «الصحاح» و«المسانيد» و«السنن». فمنها: حديث أبي هريرة: أن ناساً، قالوا: يا رسول الله! هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا، قال: «**فإنكم ترونه كذلك...**»(١٦٢) الحديث؛ أخرجاه في «**الصحيحين**» {خ(٧٤٣٧)، م(١٨٢)} بطوله * وحديث أبي سعيد الخدري {١٠ق هـ ـ ٧٤هـ} أيضاً في «**الصحيحين**» {خ(٧٤٣٩)، م(١٨٣)} نظيره * وحديث جرير بن عبد الله البَجَلي {ـ ٥١هـ}، قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ، فنظر إلىٰ القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «**إنكم سترون ربكم عِياناً، كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته...**»(١٦٣) الحديث؛

(١٦٢) متفق عليه، وهو مخرج في «ظلال الجنة» (٤٥٣، ٤٧٥).

(١٦٣) **متفق عليه** {خ(٥٥٤)، م(٦٣٣)}، وهو مخرج في المصدر المذكور (٤٤٦ ـ ٤٥١ و٤٦١)، **وفي ثبوت كلمة «عياناً»** {خ(٧٤٣٥)} **نظر عندي**، بينته هناك فراجعه.

أخرجاه في «الصحيحين» * وحديث صهيب المتقدم(=١٦١)؛ رواه **مسلم** {١٨١} وغيره * وحديث أبي موسىٰ عن النبي ﷺ، قال: «**جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالىٰ إلا رداء الكبرياء علىٰ وجهه في جنة عدن**»(١٦٤) أخرجاه في «**الصحيحين**» {خ(٤٨٧٨)، م(١٨٠)} * ومن حديث عدي بن حاتِم {-٦٨هـ}: «**وليلقَيَن اللهَ أحدُكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه حجاب ولا تَرجُمان يترجم له، فيقول: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلىٰ يا رب، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلىٰ يا رب**» أخرجه **البخاري** في «صحيحه» {٣٥٩٥}(١٦٥).

وقد روىٰ أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً. ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا أني التزمت الاختصار لسقت ما في الباب من الأحاديث"{ر: حادي ٢٠٥ - ٢٣٣}.)

ومن أراد الوقوف عليها فليواظب سماع الأحاديث النبوية، فإن فيها مع إثبات الرؤية أنه يكلم من شاء إذا شاء، وأنه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة، وأنه فوق العالم، وأنه (يناديهم بصوت يَسمَعُهُ من بعُد كما يسمعه من قرُب) {حسن: خت قبل (٧٤٨١)، خد (٩٧٠)}، وأنه يتجلىٰ لعباده، وأنه يضحك، إلىٰ غير ذلك من الصفات التي سماعها علىٰ الجَهْمية بمنزلة الصواعق. وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنّة رسوله؟! وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره به رسوله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، الذين نزل القرآن بلغتهم؟! وقد قال ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»(١٦٦) وفي رواية: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»(١٦٧). وسئل أبو بكر رضي الله عنه - عن قوله تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس] -: ما الأبُّ؟ فقال: أي سماء تُظلني، وأي أرض تُقلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟

(١٦٤) متفق عليه، وهو مخرج في «الضعيفة» (٣٤٦٤) تحت حديث آخر نحو هذا، لكن فيه زيادة علىٰ هذا، ولذلك خرجته هناك.

(١٦٥) في «المناقب».

(١٦٦) **ضعيف**. أخرجه الترمذي {(٣١٣٥)} من حديث عبد الله بن عباس مرفوعاً، وأوله: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، ومن قال في القرآن برأيه...» الحديث، ورواه ابن جرير أيضاً، وإسناده ضعيف كما ذكرت في تخريج «المشكاة» (٢٣٤)(١).

(١٦٧) **ضعيف**، رواه أبو داود {(٣٦٥٢)}، والترمذي {(٣١٣٦)} وغيرهما من حديث جندب {بل: ت(٣١٣٤) - ابن عباس؛ لأن حديث جندب مختلف}.

---

(١) كان هنا في الطبعة الأولىٰ {أي: الثالثة} وَهَمٌ من المخرج استغله صاحب التقرير، متعامياً عن ذكر التصحيح في آخر تلك الطبعة، وانظر: الصفحة (٤١م) من مقدمة الألباني. - زهير -.

وليس تشبيه رؤية الله تعالىٰ برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي، ولكن فيه دليل علىٰ علوّ الله علىٰ خلقه. وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟! ومن قال: يُرىٰ لا في جهة؛ فليراجع عقله! فإما أن يكون مكابراً لعقله أو في عقله شيء، وإلا فإذا قال: يُرىٰ لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته؛ رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة.

ولهذا ألزم المعتزلة من نفىٰ العلو بالذات بنفي الرؤية، وقالوا: كيف تُعقل رؤية بلا مقابلة بغير جهة؟! وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قُوىٰ الآدميين حتىٰ أطاقوا رؤيته. ولهذا لما تجلىٰ الله للجبل: ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف] بأنه لا يراك حيٌّ إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا كان البشر يَعْجِزون عن رؤية الملَك في صورته، إلا من أيّده الله كما أيّد نبينا. قال تعالىٰ: ﴿﴿٨﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام]. قال غير واحد من السلف: لا يطيقون أن يروا الملك في صورته، فلو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ يشتبه عليهم: هل هو بشر أو ملك؟ ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً منَّا.

وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام إلا لمّا وافقوهم علىٰ أنه لا داخل العالم ولا خارجه. لكن قول من أثبت موجوداً يُرىٰ لا في جهة؛ أقرب إلىٰ العقل من قول من أثبت موجوداً قائماً بنفسه لا يُرىٰ ولا في جهة.

ويقال لمن قال بنفي الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة: أتريد بالجهة أمراً وجوديّاً؟ أو أمراً عدميّاً؟ فإن أراد بها أمراً وجودياً كان التقرير: كل ما ليس في شيء موجود لا يُرىٰ، وهذه المقدمة ممنوعة، ولا دليل علىٰ إثباتها، بل هي باطلة، فإن سطح العالم يمكن أن يُرىٰ، وليس العالم في عالم آخر. وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً، {كانت} المقدمة الثانية ممنوعة، فلا نسلم أنه ليس في جهة بهذا الاعتبار.

وكيف يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسُّنّة، وإنما يتلقاه من قول فلان؟! وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقىٰ تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، المنقول إلينا عن الثقات النقَلة، الذين تخيرهم النقاد، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده، بل

نقلوا نظْمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان، بل يتعلمونه بمعانيه. ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلم برأيه وما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب فهو مأثوم وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسُّنّة فهو مأجور وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره.

وقوله: (**والرؤية حق لأهل الجنة**): تخصيص أهل الجنة بالذكر، يفهم منه نفي الرؤية عن غيرهم. ولا شك في رؤية أهل الجنة لربهم في الجنة، وكذلك يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة، كما ثبت ذلك في «**الصحيحين**» عن رسول الله ﷺ(١٦٨/١). ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب]. "واختلف في رؤية أهل المحشر علىٰ ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنه لا يراه إلا المؤمنون. **الثاني**: يراه أهل الموقف، مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك. **الثالث**: يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار. وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف"{١٩٨}.

واتفقت الأمة علىٰ أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا ﷺ خاصة: منهم من نفىٰ رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ. وحكىٰ القاضي عِيَاض {٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ} في كتابه «الشفا» اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته ﷺ، وإنكارَ عائشة رضي الله عنها أن يكون ﷺ رأىٰ ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق {ـ ٦٣هـ} حين سألها: هل رأىٰ محمد ربه؟ فقالت: لقد قَفَّ شعري مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمداً رأىٰ ربه فقد كذب {خ(٤٨٥٥)، م(١٧٧)}(١٦٨/٢).

ثم قال: وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبي هريرة واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين * وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ﷺ رأىٰ ربه بعينه(١٦٩) * وروىٰ عطاء {٢٧ ـ ١١٤هـ} عنه: رآه بقلبه {م(١٧٦)}. ثم ذكر أقوالاً وفوائد، ثم قال: وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص، والمعوَّل فيه علىٰ آية النجم، والتنازع فيها مأثور، والاحتمال لها ممكن. وهذا القول الذي قاله القاضي عِيَاض رحمه الله هو الحق، فإن الرؤية في الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكن ممكنة، لما

(١٦٨/١) انظر: صفحة ١١٣ {(١٦٢)}.

(١٦٨/٢) أخرجه **الشيخان** وأحمد (٦/ ٤٩) في حديث لها معروف.

(١٦٩) **ضعيف**، أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» بألفاظ مضطربة عنه موقوفاً.

سألها موسىٰ عليه السلام، لكن لم يرد نص بأنه ﷺ رأىٰ ربه بعين رأسه، بل ورد ما يدل علىٰ نفي الرؤية، وهو ما رواه **مسلم** في «صحيحه» {(١٧٨)} عن أبي ذر {ـ ٣٢هـ} رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أنَّىٰ أراه؟!**»(١٧٠) وفي رواية: «**رأيت نوراً**» * وقد روىٰ مسلم {١٧٩} أيضاً عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور ـ لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»(١٧١). فيكون ـ والله أعلم ـ معنىٰ قوله لأبي ذر: «**رأيت نوراً**»: أنه رأىٰ الحجاب، ومعنىٰ قوله: «**نورٌ أنَّىٰ أراه**»: النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته، فأنَّىٰ أراه؟! أي: فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته؟ فهذا صريح في نفي الرؤية. والله أعلم.

وحكىٰ عثمان بن سعيد الدارمي {٢٠٠ ـ ٢٨٠هـ} اتفاق الصحابة علىٰ ذلك، ونحن إلىٰ تقرير رؤيته لجبريل أحوج منّا إلىٰ تقرير رؤيته(١٧٢) لربه تعالىٰ، وإن كانت رؤية الرب تعالىٰ أعظم وأعلىٰ، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

وقوله: (**بغير إحاطة ولا كيفية**): هذا لكمال عظمته وبهائه ﷻ لا تُدركه الأبصار ولا يحيط به، كما يُعلم ولا يحاط به علماً. قال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه].

وقوله: (**وتفسيره علىٰ ما أراد الله وعَلِمَه..**) إلىٰ أن قال: (**لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا**) أي: كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسُّنّة في الرؤية، وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه. فالتأويل الصحيح هو الذي يوافق ما جاءت به السُّنّة، والفاسد المخالف له. فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق، ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه،

---

(١٧٠) صحيح، أخرجه مسلم في آخر كتاب الإيمان ويشهد له حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلىٰ الله ﷻ». رواه الدارقطني كما في «الدر» (٦/ ١٩١)، وله شاهد مرسل، رواه أبو سعيد الدارمي في «الرد علىٰ الجهمية» (ص٦٣) طبع المكتب الإسلامي.

(١٧١) **صحيح**، وقد مضىٰ برقم (٥٢).

(١٧٢) ما في المطبوعتين خطأ، وصوابه ما أثبتناه من الأصل، ويؤيده ما في «الرد علىٰ الجهمية» للدارمي (ص٦٣).

إذ لو قصده لحفَّ بالكلام قرائن تدل علىٰ المعنىٰ المخالف لظاهره، حتىٰ لا يوقع السامع في اللبس والخطإ، فإن الله أنزل كلامه بياناً وهدىً، فإذا أراد به خلاف ظاهره، ولم يحف به قرائن تدل علىٰ المعنىٰ الذي يتبادر غيره إلىٰ فهم كل أحد، لم يكن بياناً ولا هدىً. "فالتأويل إخبار بمراد المتكلم، لا إنشاء.

وفي هذا الموضع يغلط كثير من الناس، فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، فإذا قيل: معنىٰ اللفظ كذا وكذا، كان إخباراً بالذي عنىٰ المتكلم، فإن لم يكن الخبر مطابقاً كان كذباً علىٰ المتكلم، ويُعرف مراد المتكلم بطرق متعددة، منها: أن يصرح بإرادة ذلك المعنىٰ. ومنها: أن يستعمل اللفظ الذي له معنىً ظاهر بالوضع، ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنىٰ، فكيف إذا حُف بكلامه ما يدل علىٰ أنه إنما أراد حقيقته وما وُضع له، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء]. و«**إنكم ترون ربكم عِياناً كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب**»(١٧٣). فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم، فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وُضع له مع القرائن المؤكدة، كان صادقاً في إخباره. وأما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به ما يدل عليه، فإخباره بأن هذا مراده كذبٌ عليه، وهو تأويل بالرأي، وتوهم بالهوىٰ.

وحقيقة الأمر: أن قول القائل: نحمله علىٰ كذا، أو: نتأوله بكذا، إنما هو من باب دفع دلالة اللفظ عما وضع له، فإن منازِعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده، دفع معناه، وقال: أحمله علىٰ خلاف ظاهره.

فإن قيل: بل للحمل معنىً آخر، لم تذكروه، وهو: أن اللفظ لما استحال أن يراد به حقيقته وظاهره، ولا يمكن تعطيله، استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهره علىٰ أن مجازه هو المراد، فحملناه عليه دلالة لا ابتداء.

قيل: فهذا المعنىٰ هو الإخبار عن المتكلم أنه أراده، وهو إما صدق وإما كذب، كما تقدم، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يبين للسامع المعنىٰ الذي أراده، بل يقرن بكلامه ما يؤكد إرادة الحقيقة. ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره، إذا قصد التعمية علىٰ السامع حيث يسوغ ذلك، ولكن المنكَر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والإيضاح وإفهام

(١٧٣) متفق عليه، وتقدم برقم (١٦٣) مع النظر في كلمة «عياناً».

مراده!"{الصواعق ٢٠٢ ـ ٢٠٥} كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفي المجاز، ويكرره غير مرة، ويضرب له الأمثال.

وقوله: **(فإنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلىٰ عالمه)**: أي: سلم لنصوص الكتاب والسُّنّة، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة، أو بقوله: العقل يشهد بضد ما دلّ عليه النقل! والعقل أصل النقل! فإذا عارضه قدمنا العقل! وهذا لا يكون قط. لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك: فإن كان النقل صحيحاً فذلك الذي يُدَّعىٰ أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك. وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة، فلا يُتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً. ويُعارَض كلام من يقول ذلك بنظيره، "فيقال: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمعٌ بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دل علىٰ صحة السمع ووجوب قَبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكنّا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه. وهذا بيِّن واضح، فإن العقل هو الذي دل علىٰ صدق السمع وصحته، وأن خبره مطابق لمخبره، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم ألّا يكون العقل دليلاً صحيحاً، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً لم يجز أن يُتبع بحال، فضلاً عن أن يُقدم، فصار تقديم العقل علىٰ النقل قدحاً في العقل"{درء ١/ ١٧٠، وعنه الصواعق ٨٥٣}.

فالواجب "كمال التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقَبول والتصديق، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً، أو نحمله شبهةً أو شكّاً، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما نوحد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا نحاكم إلىٰ غيره، ولا نرضىٰ بحكم غيره، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره علىٰ عرضه علىٰ قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفَّذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة فوّضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره، وإلا حرَّفه عن مواضعه، وسمّىٰ تحريفه تأويلاً وحملاً، فقال: نؤوِّله

ونحمله. فلأن يلقىٰ العبد ربه بكل ذنب ـ ما خلا الإشراك بالله ـ خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال. بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعدُّ نفسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ، فهل يسوغ أن يؤخر قَبوله والعمل به حتىٰ يعرضه علىٰ رأي فلان وكلامه ومذهبه؟! بل كان الفرض المبادرة إلىٰ امتثاله، من غير التفات إلىٰ سواه"{مدارج ٢/٣٨٧}، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان، بل يستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تُهْدَر الأقيسة، وتلغىٰ لنصوصه، ولا نحرف كلامه عن حقيقته، لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول! ولا يوقف قَبول قوله علىٰ موافقة فلان دون فلان، كائناً من كان.

قال الإمام أحمد {٦٦٩٩}: حدثنا أنس بن عِياض، حدثنا أبو حازم، عن عمرو بنِ شعيب {ـ١١٨هـ}، عن أبيه، عن جده، قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أُحب أن لي به حمْر النعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نُفرِّق بينهم، فجلسنا حَجْرَة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتمارَوا فيها، حتىٰ ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً، قد احمرّ وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «**مهلاً يا قوم! بهذا أُهلِكت الأمم من قبلكم، باختلافهم علىٰ أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يُكذِّب بعضه بعضاً، وإنما نزل يُصدِّق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهِلتم منه فردوه إلىٰ عالِمِهِ**»(١٧٤).

ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف] وقال تعالىٰ: ﴿﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء]. فعلىٰ العبد "أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، فيصدق بأنه حق وصِدق، وما سواه من كلام سائر الناس يُعْرَض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم: هل خالفه أو وافقه، لِكَوْنِ ذلك الكلام مجملاً لا يَعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف، هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه؛ فإنه يمسك عنه، ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علمٌ من غير الرسول، لكن في الأمور الدنيوية، مثل الطب والحساب والفلاحة،

(١٧٤) **صحيح**، وأخرجه البغوي أيضاً في «شرح السنة» رقم (١٢١؛ طبع المكتب الإسلامي). ورجاله ثقات علىٰ خلاف معروف في عمرو بن شعيب.

وأما الأمور الإلـٰهية والمعارف الدينية، فهذه العلم فيها ما أُخِذ عن الرسول"{مجموع ١٣/١٣٥} لا غير.

١/٣٦ ـ قوله: (ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام).

ش: هذا من باب الاستعارة، إذ القدم الحسي لا تثبت إلا على ظهر شيء. أي: لا يثبت إسلام من لم يسلِّم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه. روى البخاري {ف: قبل (٧٥٣٠) * ب (١٨٦)} عن الإمام محمد بن شهاب الزهري {٥٨ ـ ١٢٤هـ} رحمه الله أنه قال: من الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. وهذا كلام جامع نافع.

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو: أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالماً، ولا يمكن للعالم أن يصير نبياً رسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالماً، فدل عليه عاميّاً آخر، ثم اختلف المفتي والدالّ، فإن المستفتيَ يجب عليه قَبول قول المفتي، دون الدالّ، فلو قال الدالّ: الصواب معي دون المفتي، لأني أنا الأصل في علمِك بأنه مفت، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت، فلزم القدح في فرعه! فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت له بأنه مفت، ودللت عليه، شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعيَّن، لا يستلزم موافقتك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفتَ فيه المفتيَ الذي هو أعلم منك، لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتيَ قد يخطئ.

والعاقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى، لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، وقد علمنا "بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذي تلقيه علينا، والحكمة التي جئتنا بها، قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك، لكان قدحاً فيما علمنا به صدْقَك، فنحن نعتقد موجب الأقوال المناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نُعرِض عنه، لا نتلقى منه هدىً ولا علماً، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول، ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد ألّا يؤمن بشيء مما جاء به الرسول، إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقي الوسواس في النفوس، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا

في كل ما أخبر به الرسول وما أمر به!؟» {درء ٥/٢١٤} وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور: ٥٢] وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل] وقال تعالىٰ: ﴿﴿٤٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [إبراهيم] ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٧] ﴿حمٓ ۚ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الدخان. الزخرف] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [يوسف] ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]. ونظائر ذلك كثيرة في القرآن. فأمْر الإيمان بالله واليوم الآخر: إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل علىٰ الحق أم لا؟ الثاني: باطل، وإن كان قد تكلم علىٰ الحق بألفاظ مجملة محتملة، فما بلَّغ البلاغ المبين، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ، وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم، فمن يدّعي أنه في أصول الدين لم يُبلِّغ البلاغ المبين، فقد افترىٰ عليه ﷺ.

٢/٣٦ ـ قوله: (فمن رام عِلْمَ ما حُظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان).

ش: هذا تقرير للكلام الأول، وزيادة تحذير أن يُتكلم في أصول الدين ـ بل وفي غيرها ـ بغير علم. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء] وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج] وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص] وقال تعالىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم]. إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ هذا المعنىٰ.

وعن أبي أُمامة الباهلي {ـ ٨١هـ} رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل**» ثم تلا: «﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الزخرف: ٥٨]»(١٧٥)

(١٧٥) حسن كما قال الترمذي. «المشكاة» (١٨٠)، و«صحيح الترغيب» رقم (١٣٧).

رواه الترمذي {٣٤٨٣}، وقال: حديث **حسن** * وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلىٰ الله الألد الخصِم**» خرّجاه في «**الصحيحين**» {خ(٢٤٥٧)، م(٢٦٦٨)}.

ولا شك أن من لم يسلم للرسول، نقص توحيده، فإنه يقول برأيه وهواه، ويقلد ذا رأي وهوىً بغير هدىً من الله، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول، فإنه قد اتخذ في ذلك إلـٰهاً غير الله. قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية]. أي: عبد ما تهواه نفسه. وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق، كما قال عبد الله بن المبارك {١١٨ ـ ١٨١هـ} رحمة الله عليه {من المتقارب}:

رأيت الذنوب تُميتُ القلوب ... وقد يُورث الذُّلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسك عِصيانُها
وهل أفسد الدِّينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سوءٍ ورُهبانُها

فالملوك الجائرة يعترضون علىٰ الشريعة "بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدمونها علىٰ حكم الله ورسوله"{مدارج ٢/ ٧٠}. وأحبار السوء، وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيده، وتقييد ما أطلقه، ونحو ذلك. والرهبان وهم جهال المتصوفة، المعترضون علىٰ حقائق الإيمان والشرع، بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه علىٰ لسان نبيه ﷺ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس. "فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة! وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل! وقال أصحاب الذوق: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهرُ الشرع قدمنا الذوق والكشف"{مدارج ٢/ ٧٠}.

ومن كلام أبي حامد الغزالي {٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ} رحمه الله في كتابه الذي سماه «إحياء علوم الدين» {١/ ٩٤ ـ ٩٧} وهو من أجلِّ كتبه، أو أجلُّها: (فإن قلتَ: فعِلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه؟ فاعلم أن للناس في هذا غلوّاً وإسرافاً في أطراف. فمن قائل: إنه بدعة وحرام، وإن العبد أن يلقىٰ الله بكل ذنب سوىٰ الشرك خيرٌ له من أن يلقاه بالكلام. ومن قائل: إنه فرضٌ، إما علىٰ الكفاية، وإما علىٰ الأعيان، وإنه أفضل الأعمال وأعلىٰ القربات، فإنه تحقيق لعلم التوحيد

ونضال عن دين الله) قال، (وإلىٰ التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان {٩٧ ـ ١٦١} وجميع أئمة الحديث من السلف) وساق الألفاظ عن هؤلاء، قال: (وقد اتفق أهل الحديث من السلف علىٰ هذا. ولا ينحصر ما نُقل عنهم من التشديدات فيه، قالوا: ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصحُ بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلا لما يتولد منه من الشر. ولذلك قال ﷺ: «**هَلَكَ المتنطعون**» {م(٢٦٧٠)}[(١/١٧٦)]. أي: المتعمقون في البحث والاستقصاء. واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ، ويعلم طريقه، ويُثني علىٰ أربابه) ثم ذكر بقية استدلالهم، ثم ذكر استدلال الفريق الآخر، إلىٰ أن قال، (فإن قلت: فما المختار عندك؟) فأجاب بالتفصيل، فقال، (فيه منفعة، وفيه مضرة: فهو في وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب، كما يقتضيه الحال. وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام) قال، (فأما مضرته: فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، وذلك مما يحصل بالابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص. فهذا ضرره في اعتقاد الحق، وله ضرر في تأكيد اعتقاد البدعة، وتثبيتها في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم علىٰ الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل) قال، (وأما منفعته، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها علىٰ ما هي عليه، وهيهات! فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف) قال، (وهذا إذا سمعته من محدِّث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهِلوا، فاسمع هذا ممن خبَر الكلام، ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلىٰ منتهىٰ درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلىٰ التعمق في علوم أُخر سوى نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلىٰ حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود. ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن علىٰ الندور). انتهىٰ ما نقلته عن الغزالي رحمه الله.

وكلام مثله في ذلك حجة بالغة، والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً علىٰ معان صحيحة، كالاصطلاح علىٰ ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضاً الدلالة علىٰ الحق والمحاجّة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله علىٰ أمور

(١/١٧٦) **مسلم**، من حديث ابن مسعود، وهو مخرج في «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» رقم (٧).

كاذبة مخالفة للحق. ومن ذلك: مخالفتها للكتاب والسُّنّة وما فيه من علوم صحيحة، فقد "وعَّروا الطريق إلىٰ تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها، فهي (لحم جمل غثّ علىٰ رأس جبل وَعر، لا سهلٌ فيُرْتقىٰ، ولا سمين فينتقل) {خ(٥١٨٩)، م(٢٤٤٨)}. وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان] فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد. كما قيل {المَعَرّيّ، من البسيط}:

لولا التنافسُ في الدنيا لما وُضِعت ... كتبُ التناظُر لا «المُغْني» ولا «العَمَدُ»
يُحلِّلون بزعم منهمُ عُقَداً ... وبالذي وضعوه زادت العُقدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه، الشُّبه والشكوك، والفاضلُ: الذي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك.

ومن المحال ألّا يحصل الشفاء والهدىٰ والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصلُ من كلام هؤلاء المتحيرين!"{إغاثة ١/ ٧٤}. بل "الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبرَ معناه ويعقله، ويعرفَ برهانه ودليله العقلي والخبري السمعي، ويعرفَ دلالته علىٰ هذا وهذا، ويجعلَ أقوالَ الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحابها: هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول، قُبلَ، وإن أرادوا بها ما يخالفه، رُدَّ. وهذا مثل لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر والجهة والحيِّز والعرض، ونحو ذلك. فإن هذه الألفاظ لم تأت في الكتاب والسُّنّة بالمعنىٰ الذي يريده أهل هذا الاصطلاح، بل ولا في اللغة، بل هم يخصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها، فتفسَّر تلك المعاني بعبارات أُخر، ويُنظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل"{مجموع ١٣/ ١٤٥}.

مثال ذلك في: التركيب. فقد صار له معانٍ: **أحدها**: التركيب من متباينين فأكثر. ويسمىٰ: تركيب مزج، كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك، وهذا المعنىٰ منفي عن الله ﷻ، ولا يلزم من وصف الله تعالىٰ بالعلوِّ ونحوه من صفات الكمال، أن يكون مركباً بهذا المعنىٰ المذكور. **والثاني**: تركيب الجوار. كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالىٰ إثبات هذا التركيب. **الثالث**: التركيب من الأجزاء المتماثلة، وتسمىٰ: الجواهر المفردة. **الرابع**: التركيب من الهيولىٰ والصورة، كالخاتم مثلاً، هيولاه: الفضة، وصورته معروفة. وأهل الكلام قالوا: إن الجسم يكون مركباً من الجواهر المفردة. ولهم

كلام في ذلك يطول، ولا فائدة فيه، وهو أنه: هل يمكن التركيب من جزئين، أو من أربعة، أو ستة، أو ثمانية، أو ستة عشر؟ وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفاته تعالىٰ وعلوه علىٰ خلقه. والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء، وإنما قولهم مجرد دعوىٰ، وهذا مبسوط في موضعه. **الخامس**: التركيب من الذات والصفات، هم سموه تركيباً لينفوا به صفات الرب تعالىٰ، وهذا اصطلاح منهم لا يُعرف في اللغة، ولا في استعمال الشارع، فلسنا نوافقهم علىٰ هذه التسمية ولا كرامة. ولئن سمَّوا إثبات الصفات تركيباً؛ فنقول لهم: العبرة للمعاني لا للألفاظ، سموه ما شئتم، ولا يترتب علىٰ التسمية بدون المعنىٰ حكم! فلو اصطلح علىٰ تسمية اللبن خمراً، لم يحرُم بهذه التسمية. **السادس**: التركيب من الماهية ووجودها، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران، وأما في الخارج، هل يمكن ذاتٌ مجردة عن وجودها، ووجودها مجردٌ عنها؟ هذا محال. فترىٰ أهل الكلام يقولون: هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم في ذلك خبط كثير. وأمثلهم طريقة رأيُ الوقف والشك في ذلك. وكم يزول بالاستفسار والتفصيل كثيرٌ من الأضاليل والأباطيل.

وسبب الإضلال الإعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة. وإنما سمي هؤلاء: أهل الكلام، لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أَتَوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما عُلم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله يُنتفع به في موضع آخر، ومع من ينكر الحس. وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته ـ مع وجود النص، أو عارَضَ النص بالمعقول ـ فقد ضاهىٰ إبليس، حيث لم يسلم لأمر ربه، بل قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف. صـ:٧٥] وقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]. أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتىٰ يحكِّموا نبيه ويرضَوا بحكمه ويسلموا تسليماً.

٣/٣٦ ـ قوله: (فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسْوساً تائهاً، شاكاً زائغاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مكذباً).

ش: يتذبذب: يضطرب ويتردد. وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حال كل

من عدل عن الكتاب والسنّة إلىٰ علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسُّنّة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلىٰ الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلىٰ الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد {٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ}، وهو من أعلم الناس بمذْهب الفلاسفة ومقالاتهم، في كتابه «تهافت التهافت» {٨٨}: (ومن الذي قال في الإلـٰهيات شيئاً يعتد به؟!) * وكذلك الآمدي {٥٥١ ـ ٦٣١هـ}، أفضل أهل زمانه، واقف في المسائل الكبار حائر * وكذلك الغزالي {٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ} رَحِمَهُ اللهُ، انتهىٰ آخر أمره إلىٰ الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل علىٰ أحاديث الرسول ﷺ، فمات و«البخاري» علىٰ صدره * وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازيّ {٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ}، قال في كتابه الذي صنفه {في أقسام} اللذات {من الطويل}:

نهاية إقدام العقول عِقالُ ... وغايةُ سعي العالمين ضَلالُ
وأرواحنا في وَحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذىً ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمْرنا ... سوىٰ أن جمعنا فيه: قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علتْ شرفاتِها ... رجالٌ، فزالوا والجبالُ جبالُ

لقد تأملتُ الطرقَ الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تُرْوي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقةَ القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]. وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:٩] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]. ثم قال: (ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي).

وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني {٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ}: إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال {الأبِيْوَرْدي من الطويل}:

لعمري لقد طفتُ المعاهد كلها ... وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ ... علىٰ ذَقَنٍ أو قارعاً سنَّ نادمِ

وكذلك قال أبو المعالي الجُوَيْنيُّ {٤١٩ ـ ٤٧٨هـ}: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلىٰ ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نَهَوْني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجوينيّ، وها أنا ذا أموت

علىٰ عقيدة أمي، أو قال: علىٰ عقيدة عجائز نيسابور * وكذلك قال شمس الدين الخُسْرُوشاهيُّ {٥٨٠ ـ ٦٥٢هـ}، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازيّ {٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ}، لبعض الفضلاء(٢/١٧٦)، وقد دخل عليه يوماً، فقال: ما تعتقده؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: اشكر الله علىٰ هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، وبكىٰ حتىٰ أخضل لحيته.

ولابن أبي الحديد {٥٨٦ ـ ٦٥٦هـ}، الفاضل المشهور بالعراق {من المديد}:

فيكَ يا أُغلوطة الفكر ... حار أمري وانقضىٰ عُمري
سافرتْ فيك العقول فما ... ربحتْ إلا أذىٰ السفر
فلحىٰ اللّهُ الأُلىٰ زعموا ... أنك المعروف بالنظر
كذَبوا إن الذي ذكروا ... خارجٌ عن قوة البشر

وقال الخُونَجيُّ {٥٩٠ ـ ٦٤٦هـ} عند موته: ما عرفت مما حصلته شيئاً سوىٰ أن الممكن يفتقر إلىٰ المرجح، ثم قال، الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئاً.

وقال آخر(٣/١٧٦): أضطجع علىٰ فراشي وأضع الملحفة علىٰ وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتىٰ يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء.

ومن يصل إلىٰ مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كَذَبَ * وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: حُكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنّة وأقبل علىٰ الكلام. وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام علىٰ شيء ما ظننت مسلماً يقوله، ولَأَنْ يُبتلىٰ العبد بكل ما نهىٰ الله عنه ـ ما خلا الشرك بالله ـ خيرٌ له من أن يبتلىٰ بالكلام. انتهىٰ.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلىٰ مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم ـ إذا سلموا من العذاب ـ بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

(٢/١٧٦) {هو ابن باده. «الفتاوىٰ» ٥/ ٢٤٠}.

(٣/١٧٦) {هو محمد بن سالم بن واصل الحموي (٦٠٤ ـ ٦٩٧هـ). «درء» ٣/ ٢٦٣}.

والدواء النافع لمثل هذا المرض، ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله ـ إذا قام من الليل يفتتح الصلاة ـ: «**اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾** [البقرة: ٢١٣. يونس: ٢٥. النور: ٤٤]»(١٧٧) خرّجه **مسلم** {٧٧٠}. توجّه ﷺ إلىٰ ربه "بربوبية جبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية. وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة: فجبريل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقَطْر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصُّور الذي هو سبب حياة العالم وَعَود الأرواح إلىٰ أجسادها. فالتوسل إلىٰ الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة، له تأثير عظيم في حصول المطلوب" {زاد ٤/ ٢٠٥}. والله المستعان.

١/٣٧ ـ قوله: (ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم، إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنىً يضاف إلىٰ الربوبية ـ تركَ التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين، ومن لم يَتَوَقَّ النفي والتشبيه، زلّ ولم يُصب التنزيه).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلىٰ الرد علىٰ المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية، وعلىٰ من يشبه الله بشيء من مخلوقاته. فإن النبي ﷺ قال: «**إنكم ترَوْن ربكم كما ترَوْن القمر ليلة البدر...**»(١٧٨) الحديث. أدخل (كاف) التشبيه علىٰ «**ما**» المصدرية الموصولة بـ «**ترون**» التي تَنْحَلُّ إلىٰ المصدر الذي هو الرؤية، فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئي. وهذا بين واضح في أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها، ودفع الاحتمالات عنها. وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح؟! فإذا سُلّط التأويل علىٰ مثل هذا النص، كيف يستدل بنص من النصوص؟! وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه: إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟! ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]. ونحو ذلك مما استعمل فيه (رأىٰ) التي من أفعال القلوب! ولا شك أن (ترىٰ) تارة تكون

(١٧٧) صحيح، ورواه أبو عوانة أيضاً في «صحيحه» {٢/ ٣٠٥}.

(١٧٨) **متفق عليه**، وقد تقدم (برقم ١٦٣).

بصرية، وتارة تكون قلبية، وتارة تكون من رؤيا الحلم، وغير ذلك، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلّص أحد معانيه من الباقي. وإلا لو أخلىٰ المتكلم كلامه من القرينة المخلِّصة لأحد المعاني لكان مجملاً مُلغزاً، لا مبيِّناً موضحاً. وأي بيان وقرينة فوق قوله: «**ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب**»؟ فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر، أو برؤية القلب؟ وهل يخفىٰ مثل هذا إلا علىٰ من أعمىٰ الله قلبه؟

فإن قالوا: ألجأنا إلىٰ هذا التأويل، حكم العقل بأن رؤيته تعالىٰ محال لا يُتصور إمكانها!

فالجواب: أن هذه دعوىٰ منكم، خالفكم فيها أكثر العقلاء، وليس في العقل ما يحيلها، بل لو عُرض علىٰ العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته، لحكم بأن هذا محال.

وقوله: (**لمن اعتبرها منهم بوهم**): أي توهم أن الله تعالىٰ يُرىٰ علىٰ صفة كذا، فيتوهم تشبيهاً، ثم بعد هذا التوهم، إن أثبت ما توهمه من الوصف، فهو مشبِّه، وإن نفىٰ الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم فهو جاحد معطِّل. بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده، ولا يعم بنفيه الحق والباطل، فينفيهما ردّاً علىٰ من أثبت الباطل، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق.

وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه) فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي! وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال؟! فإن نفي الرؤية ليس بصفة كمال، إذ المعدوم لا يُرىٰ، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة، كما في العلم، فإن نفي العلم به ليس بكمال، وإنما الكمال في إثبات العلم، ونفي الإحاطة به علماً. فهو سبحانه لا يُحاط به رؤية، كما لا يحاط ﴿بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه].

وقوله: (**أو تأولها بفهم**): أي ادعىٰ أنه فهم لها تأويلاً يخالف ظاهرها، وما يفهمه كل عربي من معناها، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنىٰ التأويل: أنه صرفُ اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرِّفون علىٰ النصوص، وقالوا: نحن نتأول ما يخالف قولنا، فَسَمَّوُا التحريف: تأويلاً، تزييناً له وزخرفة ليقبل، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل. قال تعالىٰ: ﴿﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام]. والعبرة للمعاني

لا للألفاظ. فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرفٌ عورض به دليل الحق. وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم {=١١٧}: (لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا). ثم أكد هذا المعنىٰ بقوله: (إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنىٰ يضاف إلىٰ الربوبية ـ تركَ التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين). ومراده ترك التأويل [الذي] يسمونه تأويلاً، وهو تحريف. ولكن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تأدب وجادل بالتي هي أحسن، كما أمر الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]. وليس مراده ترك كل ما يسمىٰ تأويلاً، ولا ترك شيءٍ من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسُّنّة. وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة، المخالفة لمذهب السلف، التي يدل الكتاب والسُّنّة علىٰ فسادها، وترك القول علىٰ الله بلا علم.

فمن التأويلات الفاسدة، تأويل أدلة الرؤية، وأدلة العلو، وأنه لم يكلم ﴿مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء]، ولم يتخذ ﴿إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء]!

ثم قد صار لفظ (التأويل) مستعملاً في غير معناه الأصلي.

فالتأويل في كتاب الله وسنّة رسوله: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام. فتأويل الخبر: هو عين المخبر به، وتأويل الأمر: نفس الفعل المأمور به. كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن {خ(٨١٧)، م(٤٨٤)}[1/١٧٩]. وقال تعالىٰ: ﴿﴿٥٣﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف]. ومنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠]. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء] وقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ . . .﴾ إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف]، فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل، والعلم بما تعلق بالأمر والنهي منه؟ وأما ما كان خبراً، كالإخبار عن الله واليوم الآخر، فهذا قد لا يُعلم تأويله، الذي هو حقيقته، إذ كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به، أو ما يعرفه قبل ذلك؛ لم يعرف حقيقته، التي هي تأويله، بمجرد الإخبار. وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله. لكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنىٰ الذي قصد المخاطب إفهام المخاطَب إياه،

(١/١٧٩) متفق عليه.

فما في القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحبّ أن يُعلَم ما عنىٰ بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله. فهذا معنىٰ التأويل في الكتاب والسُّنّة وكلام السلف، وسواء كان هذا التأويل موافقاً للظاهر أو مخالفاً له.

والتأويل في كلام كثير من المفسرين، كابن جرير ونحوه، يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالف، وهذا اصطلاح معروف. وهذا التأويل كالتفسير، يحمد حقه، ويُرد باطلُه. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ . . .﴾ الآية [آل عمران:٧] فيها قراءتان: قراءة من يقف علىٰ قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حق. ويراد بالأولىٰ المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله. ويراد بالثانية المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره، وهو تأويلُه. ولا يريد من وَقَف علىٰ قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أن يكون التأويل بمعنىٰ التفسير للمعنىٰ، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل علىٰ رسوله كلاماً لا يعلم معناه جميعُ الأمة ولا الرسول، ويكون الراسخون في العلم لا حظّ لهم في معرفة معناها سوىٰ قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]. وهذا القدر يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين، والراسخون في العلم يجب امتيازهم عن عوامّ المؤمنين في ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله(٢/١٧٩). ولقد صدق رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ دعا له وقال: «**اللهم فقِّهه في الدين، وعلِّمه التأويل**»(١٨٠) رواه البخاري {؟} وغيره. ودعاؤه ﷺ لا يُردّ. قال مجاهد {٢١ ـ ١٠٤هـ}: عرضت المصحف علىٰ ابن عباس، من أوله إلىٰ آخره، أقفه عند كل آية وأسأله عنها. وقد تواترتِ النقول عنه أنه تكلم في جميع معاني القرآن، ولم يقل عن آية: إنها من المتشابه الذي لا يعلم أحدٌ تأويله إلا الله.

(٢/١٧٩) {أخرجه الطبري}.

(١٨٠) **صحيح**، رواه أحمد (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ٨٤/ ٢{١٠٦١٤ و١٢٥٠٦؟})، والبيهقي في «دلائل النبوة»، والضياء المقدسي في «المختارة» {٢٣٣ و٢٣٤}} بسند صحيح عن ابن عباس. **وأما عزو المصنف إياه للبخاري فوهم**، وإنما عنده بلفظ: «اللهم علمه الحكمة» ـ وفي لفظ: «الكتاب» بدل: «الحكمة» ـ أخرجه (١/ ٣١، ٢/ ٤٤٥، ٤/ ٤٩٩{٣٧٥٦، ٧٥ و٧٢٧٠}) وهو رواية لأحمد (١/ ٢١٤، ٢٦٩، ٣٥٩) والطبراني {١٠٥٨٨ و١١٩٦١}، ورواه مسلم (٧/ ١٥٨ {٢٤٧٧})، وكذا: غ(١٤٣) بلفظ: «اللهم فقهه في الدين» فقط} مختصراً بلفظ: «اللهم فقهه». وهو رواية لأحمد (١/ ٣٢٧) وفي أخرىٰ له (١/ ٣٣٠) عن ابن عباس قال: . . فدعا الله أن يزيدني علماً وفهماً. {وتنظر «الأحاديث الصحيحة» (٢٥٨٩)}.

١/٣٧ ـ [التأويل ومعناه]

وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول: المتشابه: الحروف المقطعة في أوائل السور، ويروىٰ هذا عن ابن عباس. مع أن هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس، فإن كان معناها معروفاً، فقد عرف معنىٰ المتشابه، وإن لم يكن معروفاً، وهي المتشابه، كان ما سواها معلومَ المعنىٰ، وهذا المطلوب.

وأيضاً فإن الله قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادّين(١/١٨١).

والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين: هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلىٰ الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك. وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية. فالتأويل الصحيح منه: الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسُّنّة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا مبسوط في موضعه. وذكر في «التبصرة» {١٣٠} أن نصير بن يحيىٰ البلخي روىٰ عن عُمَرَ بن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن محمد بن الحسن {١٣١ ـ ١٨٩هـ} رحمهم الله: أنه سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالىٰ ما يؤدي ظاهره إلىٰ التشبيه؟ فقال: نُمرُّها كما جاءتْ، ونؤمن بها، ولا نقول: كيف وكيف. ويجب أن يُعلم أن المعنىٰ الفاسد الكفريّ ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك منه، فهو لقصور فهمه ونقص علمه، وإذا كان قد قيل في قول بعض الناس {المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤هـ)، من الوافر}:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفتُهُ مِنْ الفهم السّقيمِ

وقيل:

عليَّ نحتُ القوافي مِنْ أمَاكِنها ... وما عليَّ إذا لم تفهمِ البقرُ(٢/١٨١)

فكيف يقال في قول الله، الذي هو ﴿أَصْدَقُ﴾ [النساء: ١٢١ و٨٦] الكلام و﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وهو الكتاب الذي ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود]؟! إن حقيقة قولهم؛ أن ظاهر القرآن والحديث هو الضلال، وأنه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد، ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه! هذا حقيقة قول

(١/١٨١) {عَدَّها الكوفيون فقط آيتين في ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، وآية في ﴿الٓمٓ ۝١﴾، و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾، و﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، و﴿طه ۝١﴾، و﴿طسٓمٓ ۝١﴾، و﴿يٰسٓ ۝١﴾، و﴿حمٓ ۝١﴾. ولم يعدوها في الباقي: ﴿الٓرٰ﴾، و﴿الٓمٓرٰ﴾، و﴿طسٓمٓ﴾، و﴿صٓ﴾، و﴿قٓ﴾، و﴿نٓ﴾}.

(٢/١٨١) كان البيت مضطرباً في الأصول، وهو للبحتري {٢٠٦ ـ ٢٨٤هـ من البسيط}.

المتأولين. والحقُّ أن ما دل عليه القرآن فهو حق، وما كان باطلاً لم يدل عليه. والمنازعون يدّعون دلالته علىٰ الباطل الذي يتعين صرفه!

فيقال لهم: هذا الباب الذي فتحتموه، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به علىٰ إخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة خفية؛ فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين، لا تقدرون علىٰ سده، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟ فإن قلتم: ما دلّ القاطعُ العقلي علىٰ استحالته تأولناه، وإلا أقررناه! قيل لكم: وبأي عقل نزن القاطع العقلي؟ فإن القِرمِطي الباطني يزعم قيام القواطع علىٰ بطلان ظواهر الشرع! ويزعم الفيلسوف قيام القواطع علىٰ بطلان حشر الأجساد! ويزعم المعتزلي قيام القواطع علىٰ امتناع رؤية الله تعالىٰ، وعلىٰ امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالىٰ! وباب التأويلات التي يدّعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظمُ من أن تنحصر في هذا المقام، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان: **أحدهما**: ألّا نقرّ بشيء من معاني الكتاب والسُّنّة حتىٰ نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل! وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدَّعون أن العقل يدل علىٰ ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمر إلىٰ الحيرة المحذورة. **الثاني**: أن القلوب تتخلىٰ عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول. إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد، والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسُّنّة عن الدلالة والإرشاد إلىٰ ما أنبأ الله به العباد، وخاصةُ النبيِّ هي الإنباءُ، والقرآن: هو النبأ العظيم. ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسُّنّة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دلّ عليه قبلوه، وإن خالفته أولوه! وهذا فتح باب الزندقة، نسأل الله العافية.

٢/٣٧ قوله: (ومن لم يتَوَقَّ النفي والتشبيه، زلّ ولم يُصِبِ التنزيهَ).

ش: النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبهة، ومرض شهوة، وكلاهما مذكور في القرآن. قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]. فهذا مرض الشهوة. وقال تعالىٰ: ﴿۝٨ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة] وقال تعالىٰ: ﴿۝١٢٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة]. فهذا مرض الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يُرجىٰ له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته. والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها

وتشبيهها، وشبه النفي أردأ من شبه التشبيه، فإن شبه النفي ردّ وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ. وتشبيه الله بخلقه كفر فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:٩]، ونفي الصفات كفر، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ]. وهذا أحد نوعي التشبيه، فإن التشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا الذي يتعب أهل الكلام في ردِّه وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني، الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق، كعبَّاد المسيح، وعُزَير، والشمس والقمر، والأصنام، والملائكة، والنار، والماء، والعجل، والقبور، والجن، وغير ذلك. وهؤلاء هم الذين أُرسلت لهم الرسل يدعونهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له.

٣/٣٧ ـ قوله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلىٰ تنزيه الرب تعالىٰ بالذي هو وصْفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً. وكلام الشيخ مأخوذ من معنىٰ سورة الإخلاص. فقوله: **(موصوف بصفات الوحدانية)**: مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص]. وقوله: **(منعوت بنعوت الفردانية)**، من قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ وقوله: **(ليس في معناه أحد من البرية)** من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]. وهو أيضاً مؤكد لما تقدم {=١٠٩ و٢٩ و٤٥} من إثبات الصفات ونفي التشبيه. والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان. فالوصف للذات، والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية. وقيل في الفرق بينهما: إن الوحدانية للذات، والفردانية للصفات، فهو تعالىٰ موحد في ذاته، منفرد بصفاته. وهذا المعنىٰ حقٌّ ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير. وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخُطَب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع(٣/١٨١) بالخطب أليق. و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:٩] أكمل في التنزيه من قوله: (ليس في معناه أحد من البرية).

٣٨ ـ قوله: (وتعالىٰ عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات).

ش: أذكر بين يدي الكلام علىٰ عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة، وهي: أن للناس في

(٣/١٨١) (التسجيع)، بالسين المهملة، يعني: السجع.

إطلاق مثل هذه الألفاظ "ثلاثة أقوال: فطائفة تنفيها، وطائفة تثبتها، وطائفة تفصِّل، وهم المتبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تَبيَن {أن} ما أثبت بها فهو ثابت، وما نُفي بها فهو منفي. لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي. ولهذا كان النفاة ينفون بها حقّاً وباطلاً، ويذكرون عن مثبتيها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل فيها معنىً باطلاً، مخالفاً لقول السلف، ولما دلّ عليه ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٤]" {منهاج ٢/ ٣٢١}. ولم يرد نص من الكتاب ولا من السُّنّة بنفيها ولا إثباتها، وليس لنا أن نصف الله تعالىٰ بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

فالواجب أن يُنظر في هذا الباب، أعني باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه. والألفاظ التي ورد بها النص يُعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني. وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها [فـ]لا تطلق حتىٰ ينظر في مقصود قائلها: فإن كان معنىً صحيحاً قُبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة؛ إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها، ونحو ذلك.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد الرد بهذا الكلام علىٰ المشبهة، كداود الجواربي وأمثاله القائلين: إن الله جسم، وإنه جثة وأعضاء وغير ذلك! تعالىٰ الله ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء]. فالمعنىٰ الذي أراده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من النفي الذي ذكره هنا حق، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقّاً وباطلاً، فيحتاج إلىٰ بيان ذلك. وهو: أن السلف متفقون علىٰ أن البشر لا يعلمون لله حدّاً، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته. قال أبو داود الطيالسي {١٣٣ ـ ٢٠٤هـ}: كان سفيان {٩٧ ـ ١٦١هـ} وشعبة {٨٢ ـ ١٦٠هـ} وحماد بن زيد {٩٨ ـ ١٧٩هـ} وحماد بن سلمة {ـ ١٦٧هـ} وشريك {٩٥ ـ ١٧٧هـ} وأبو عوانة {بعد ٧٠ ـ ١٧٦هـ}؛ لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف؟ وإذا سُئلوا قالوا بالأثر. وسيأتي {=٢٠٤} في كلام الشيخ: (وقد أعجز خلقه عن الإحاطة به). فعلم أن مراده أن الله يتعالىٰ عن أن يحيط أحدٌ بحدّه، لا أن المعنىٰ أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم. سئل عبد الله بن المبارك {١١٨ ـ ١٨١هـ}: بِمَ نعرف ربنا؟ قال: بأنه علىٰ العرش، بائن من خلقه، قيل:

بحدّ؟ قال: بحد. انتهىٰ. ومن المعلوم أن الحد يقال علىٰ ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالىٰ غير حالّ في خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه، المقيم لما سواه. فالحد بهذا المعنىٰ لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته. وأما الحدُّ بمعنىٰ العلم والقول، وهو أن يحده العباد، فهذا منتفٍ بلا منازعة بين أهل السُّنّة. قال أبو القاسم القشيريُّ {٣٧٦ـ٤٦٥هـ} في «رسالته» {٥٨٥}: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمٰن السلمي {٣٢٥ـ٤١٢هـ}، سمعت منصور بن عبد الله، سمعت أبا الحسن العنبريَّ، سمعت سهل بن عبد الله التُّسْتَريَّ {٢٠٠ـ٢٨٣هـ} يقول، وقد سُئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان، من غير حدّ ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون في العقبىٰ، ظاهراً في ملكه وقدرته، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمن بالأبصار، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وأما لفظ **(الأركان والأعضاء والأدوات)**؛ فيستدل بها النفاة علىٰ نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد والوجه. قال أبو حنيفة رضي الله عنه في «الفقه الأكبر»: له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالىٰ في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته ونعمته، لأن فيه إبطال الصفة. انتهىٰ. وهذا الذي قاله الإمام رضي الله عنه ثابت بالأدلة القاطعة. قال تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن] وقال تعالىٰ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] وقال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١﴾ [طه] وقال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨]. وقال ﷺ في حديث الشفاعة لمّا يأتي الناسُ آدمَ فيقولون له: «**خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء...**»(١٨٢) الحديث {خ(٤٤٧٦)}. ولا يصح تأويل من قال: إن المراد باليد: بالقدرة، فإن قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد،

(١٨٢) صحيح، أخرجه **البخاري** (٤/ ٤٥٤، ٤٦٤)، وأحمد (٣/ ١١٦) في حديث الشفاعة من حديث أنس، وسيأتي بلفظ آخر (ص١٤٦ {(١٩٨)}).

ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا أيضاً خلقتني بقدرتك، فلا فضل له عليّ بذلك. فإبليس ـ مع كفره ـ كان أعرف بربه من الجهمية. ولا دليل لهم في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس] لأنه تعالىٰ جمع الأيدي لما أضافها إلىٰ ضمير الجمع، ليتناسب الجمعان اللفظيّان للدلالة علىٰ الملك والعظمة. ولم يقل: (أيديَّ) مضافاً إلىٰ ضمير المفرد، ولا (يدينا) بتثنية اليد مضافاً إلىٰ ضمير الجمع. فلم يكن قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ نظير قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾. وقال النبي ﷺ عن ربه ﷻ: «**حجابه النور، ولو كشفه لأحرقتْ سبُحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»(١٨٣).

ولكن لا يقال لهذه الصفات: إنها أعضاء، أو جوارح، أو أدوات، أو أركان، لأن الركن جزء الماهية، والله تعالىٰ هو الأحد الصمد، لا يتجزأ ﷻ، والأعضاء فيها معنىٰ التفريق والتعضية(١/١٨٤)، تعالىٰ الله عن ذلك، ومن هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر]. والجوارح فيها معنىٰ الاكتساب والانتفاع. وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرَّة. وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالىٰ، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالىٰ. فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني، سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فكذلك يجب ألّا يُعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً، لئلا يُثبت معنىً فاسد، أو يُنفىٰ معنىً صحيحٌ. وكل هذه "الألفاظ المجملة عرضة للمحقِّ والمبطل"{مدارج ٣/١٦٦}.

وأما "لفظ الجهة، فقد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أُريد بالجهة أمرٌ موجودٌ غيرُ الله تعالىٰ كان مخلوقاً، والله تعالىٰ لا يحصره شيء، ولا يحيط به شيء من المخلوقات، تعالىٰ الله عن ذلك. وإن أريد بالجهة أمر عدمي، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله وحده. فإذا قيل: إنه في جهة بهذا الاعتبار، فهو صحيح، ومعناه: أنه فوق العالم حيثُ انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع، عال عليه. ونفاة لفظ (الجهة) الذين يريدون بذلك نفي العلوّ، يذكرون من أدلتهم: أن الجهات كلها مخلوقة، وأنه كان قبل الجهات، وأن من قال: إنه في جهة يلزمه

---

(١٨٣) **صحيح**، وقد تقدم بتمامه برقم (٥٢ و١٧١).

(١/١٨٤) (التعضية): التقطيع، وجعل الشيء أعضاء.

القول بقدم شيء من العالم، وأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها. وهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات، سواء سمي جهة أو لم يسم، وهذا حق»{منهاج ٢/ ٣٢٣}. ولكن الجهة ليست أمراً وجودياً، بل أمرٌ اعتباريّ، ولا شك أن الجهات لا نهاية لها، وما لا يوجد فيها لا نهاية له فليس بموجود.

وقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات)** هو حق، باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته، بل هو محيط بكل شيء وفوقه. وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، لما يأتي {=١٩٣} في كلامه: (أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه). فإذا جُمع بين كلاميه، وهو قوله: (لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات)، وبين قوله: (محيط بكل شيء وفوقه)؛ عُلم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شيء، ولا يحيط به شيء، كما يكون لغيره(٢/ ١٨٤) من المخلوقات، وأنه تعالى هو المحيط بكل شيء، العالي على كل شيء.

لكن بقي في كلامه شيئان: **أحدهما**: أن إطلاق مثل هذا اللفظ ـ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال ـ كان تركه أولى، وإلا تُسلِّط عليه، وأُلزم بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو، وإن أُجيب عنه بما تقدم {=١٣٩}، من أنه إنَّما نفى أن يحويَه شيء من مخلوقاته، فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى. **الثاني**: أن قوله: (كسائر المبتدعات)؛ يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محويّ! وفي هذا نظر. فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي، فممنوع، فإن العالم ليس في عالم آخر، وإلا لزم التسلسل. وإن أراد أمراً عدميّاً، فليس كل مبتدع في العدم، بل منها [ما هو داخل في غيره، كالسماوات والأرض في الكرسي، ونحو ذلك، ومنها] ما هو منتهى المخلوقات، كالعرش. فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات، قطعاً للتسلسل، كما تقدم {=١٣٩}. ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال: بأن (سائر) بمعنى البقية، لا بمعنى الجميع، وهذا أصل معناها، ومنه (السؤر)، وهو ما يبقيه الشارب في الإناء. فيكون مراده غالبَ المخلوقات، لا جميعها، إذ (السائر) على (الغالب) أدل منه على (الجميع)، فيكون المعنى: أن الله تعالى غير محويّ ـ كما يكون أكثر المخلوقات محويّاً، بل هو غير محوي ـ بشيء، تعالى الله عن ذلك. ولا نظن بالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ممن يقول: إن الله تعالى ليس داخل العالَم ولا خارجه بنفي النقيضين، كما ظنه بعض الشارحين، بل مراده: أن الله تعالى منزّه عن أن

(٢/ ١٨٤) في الأصل: (بغيره).

يحيط به شيء من مخلوقاته، وأن يكون مفتقراً إلىٰ شيء منها، العرش أو غيره.

وفي ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه نظر، فإن أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه به، وقد نقل أبو مطيع البلخي {١١٥ ـ ١٩٩هـ} عنه إثبات العلو، كما سيأتي {=٢٠٠} ذكره إن شاء الله تعالىٰ. وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنّة، فلذلك قلت: إن في ثبوته عن الإمام نظراً، وإن الأولىٰ التوقف في إطلاقه، فإن الكلام بمثله خطر، بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع، كالاستواء والنزول ونحو ذلك. ومن ظن من الجهال أنه إذا «**نزل إلىٰ سماء الدنيا**»[١٨٥] ـ كما أخبر الصادق ﷺ ـ يكون العرش فوقه، ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم! فقوله مخالف لإجماع السلف، مخالف للكتاب والسنّة. وقال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمٰن الصابوني {٣٧٣ ـ ٤٤٩هـ}: سمعت الأستاذ أبا منصور بن {حمشاذ} {٣١٦ ـ ٣٨٨هـ} ـ بعد روايته حديث النزول ـ يقول: سُئل أبو حنيفة رضي الله عنه عنه؟ فقال: ينزل بلا كيف. انتهىٰ.

وإنما توقف من توقف في نفي ذلك، لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنّة وأقوال السلف، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش، بل يقول: لا مباينٌ، ولا محايثٌ[١٨٦]، لا داخل العالم ولا خارجه، فيصفونه بصفة العدم والممتنع، ولا يصفونه[١٨٧] بما وصف به نفسه من العلوِّ والاستواء علىٰ العرش، ويقول بعضهم بحلوله في كل موجود، أو يقول: هو وجود كل موجود ونحو ذلك، تعالىٰ الله عما يقول الظالمون والجاحدون ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء].

وسيأتي {=١٩٤} لإثبات صفة العلو لله تعالىٰ زيادة بيان، عند الكلام علىٰ قول الشيخ رحمه الله: (محيط بكل شيء وفوقه) إن شاء الله تعالىٰ.

٣٩ ـ قوله: (والمعراج حق، وقد أُسري بالنبي ﷺ، وعُرج بشخصه في اليقظة، إلىٰ السماء، ثم إلىٰ حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحىٰ إليه ﴿مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم]. فصلىٰ الله وسلم عليه في الآخرة والأولىٰ).

(١٨٥) متفق عليه بل هو **متواتر**، وقد خرجته في «إرواء الغليل» (٤٥٠)، وراجع إن شئت بعض ألفاظه الصحيحة في «صحيح الجامع الصغير» رقم (١٩١٧ و١٩١٨) {ق(١١٤٥)، م(٧٥٨) ـ أبو هريرة. م(٧٥٨) (١٧٢) عنه وعن أبي سعيد}.

(١٨٦) في الأصل: (محاير).

(١٨٧) في الأصل: (يصفوا).

ش: (**المعراج**): مفعال، من العروج[١٨٨]، أي الآلة التي يُعرج فيها، أي يُصعد، وهو بمنزلة السُّلّم، لكن لا يعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيَّبات، نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

وقوله: (**وقد أُسري بالنبي ﷺ بشخصه في اليقظة**): اختلف الناس في الإسراء.

فقيل: كان الإسراء بروحه ولم يُفقد جسده، نقله ابن إسحاق {ـ ح١٥١هـ}عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما، ونقل عن الحسن البصري {٢١ ـ ١١٠هـ} نحوه. لكن ينبغي أن يُعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم. فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا: كان مناماً، وإنما قالا: أُسري بروحه ولم يُفقد جسده، وفرقٌ ما بين الأمرين؛ إذْ ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرىٰ كأنه قد عرج إلىٰ السماء، وذُهب به إلىٰ مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال. فما أرادا[١٨٩/١] أن الإسراء كان مناماً، وإنما أرادا أن الروح ذاتها أُسري بها، ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذاتُ روحه الصعود الكامل إلىٰ السماء إلا بعد الموت.

وقيل: كان الإسراء مرتين، مرة يقظة، ومرة مناماً. وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: «**ثم استيقظتُ**»، وبين سائر الروايات. وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين: مرة قبل الوحي، ومرة بعده. ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي، ومرتين بعده. وكلما اشتبه عليهم لفظٌ زادوا مرة، للتوفيق! وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذي عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة، بعد البعثة، قبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر {٣٦٨ ـ ٤٦٣هـ، الاستيعاب ٢٨/١}. قال شمس الدين ابن القيم {٦٩١ ـ ٧٥١هـ}:

("يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسىٰ حتىٰ تصير خمساً، فيقول: «**أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي**»، ثم يعيدها في المرة الثانية إلىٰ خمسين، ثم يحطها إلىٰ خمس؟! وقد غلّط الحفّاظ شريكاً في ألفاظ من حديث

---

(١٨٨) في الأصل: (المعروج).

(١٨٩/١) قلت: **لم يصح ذلك عنهما**، فهو في غنية عن التأويل.

الإسراء، ومسلم أورد المسند منه، ثم قال: (فقدَّم وأخَّر وزاد ونقص). ولم يسرد الحديث. وأجاد رَحِمَهُ اللَّهُ {زاد ٣/ ٤٢}. انتهىٰ كلام الشيخ شمس الدين رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان من حديث الإسراء: أنه ﷺ "أُسري بجسده في اليقظة، علىٰ الصحيح، من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، راكباً علىٰ البراق، صحبة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنزل هناك، وصلىٰ بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد. وقد قيل: إنه نزل بيت لحم وصلىٰ فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة. ثم عُرج به من بيت المقدس تلك الليلة إلىٰ السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل، ففُتح لهما، فرأىٰ هناك آدم أبا البشر، فسلّم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقرّ بنبوته، ثم عُرج [به] إلىٰ السماء الثانية. فاستفتح له، فرأىٰ فيها يحيىٰ بن زكريا وعيسىٰ ابن مريم، فلقيهما، فسلّم عليهما، فردَّا عليه السلام، ورحبا به، وأقرَّا بنبوته ثم عُرج [به] إلىٰ السماء الثالثة، فرأىٰ فيها يوسف، فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوته، ثم عُرج [به] إلىٰ السماء الرابعة، فرأىٰ فيها إدريس، فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوته، ثم عُرج [به] إلىٰ السماء الخامسة، فرأىٰ فيها هارون بن عمران، فسلّم عليه ورحّب به وأقر بنبوته، ثم عُرج به إلىٰ السماء السادسة، فلقي فيها موسىٰ فسلم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوته، فلما جاوزه بكىٰ موسىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي، لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم عُرج به إلىٰ السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم، فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوّته، ثم رُفع إلىٰ سدرة المنتهىٰ، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عُرج به إلىٰ الجبَّار، جلّ جلاله وتقدست أسماؤه، فدنا منه حتىٰ كان ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم] وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتىٰ مر علىٰ موسىٰ، فقال: بِمَ أُمِرت؟ قال: بخمسين صلاة، فقال: [إن] أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلىٰ ربك، فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلىٰ جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار أن: نعم، إن شئت، (فعلا به جبريل حتىٰ أتىٰ به الجبارَ تبارك وتعالىٰ وهو في مكانه) هذا لفظ البخاري(٢/١٨٩) في «صحيحه». في بعض الطرق: فوضع عنه عشراً، ثم نزل حتىٰ مر

(٢/١٨٩) **لم أجد هذه الفقرة** الأخيرة في «صحيح البخاري» باللفظ المذكور، وهي في «التوحيد» (١٣/ ٤٠٥ ـ فتح {(٧٥١٧)}) بلفظ: «فالتفت النبي ﷺ إلىٰ جبريل، كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل: أي نعم، إن شئت. فعلا به إلىٰ الجبار، فقال وهو في مكانه: يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا». =

بموسىٰ، فأخبره، فقال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسىٰ وبين الله تبارك وتعالىٰ، حتىٰ جعلها خمساً، فأمره موسىٰ بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: «**قد استحييتُ من ربي، ولكن أرضىٰ وأسلّم**»، فلما نفذ «**نادىٰ مناد: قد أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي**»(١/١٩٠) ‹‹{زاد ٣/ ٣٤"}.

وقد تقدم {=١١٦} ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ ربَّه ﷻ بعين رأسه، وأن الصحيح أنه رآه(٢/١٩٠) بقلبه، ولم يره بعين رأسه، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم]، **صح** عن النبي ﷺ أن هذا المرئيّ [جبريل]، رآه مرتين علىٰ صورته التي خُلق عليها {خ(٤٨٥٥)، م(١٧٧)}.

وأما قوله تعالىٰ في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾، فهو غير الدنوّ والتدلي المذكورَين في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليّه، كما قالت عائشة وابنُ مسعود رضي الله عنهما، فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النجم]. فالضمائر كلها راجعة إلىٰ هذا المعلم الشديد القُوىٰ، وأما الدنوّ والتدلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريح في أنه دنوّ الرب تعالىٰ وتدليه(١٩١). وأما الذي في سورة النجم: أنه رآه نزلة أخرىٰ عند سدرة المنتهىٰ، فهذا هو جبريل، رآه مرتين، مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهىٰ.

= وهكذا ساقه الحافظ في «تفسيره» من طريق البخاري.

وأنت ترىٰ أن ثمة فرقاً ظاهراً بين اللفظين، فاللفظ الأول الذي في الكتاب صريح في إثبات المكان لله تعالىٰ، بخلاف اللفظ الآخر الذي نقلته عن البخاري، فليس صريحاً في إثباته، وإن كان ظاهراً في ذلك، فإنه يمكن تأويله ـ كما فعل الخطابي ـ بأن المراد به مكان النبي ﷺ في مقامه الأول الذي قام فيه قبل هبوطه، وأيده الحافظ بقوله (١٣/ ٤٠٣):

(وهذا متعين، وليس في السياق تصريح بإضافة المكان إلىٰ الله تعالىٰ).

علىٰ أن ذكر المكان في حديث الإسراء هذا مما تفرد به شريك بن عبد الله بن أبي نَمِر، كما قال الخطابي، وقد غلطه الحفاظ في ألفاظ أخرىٰ ذكرها في هذا الحديث، منها دنوّه ﷺ من ربه تعالىٰ، كما كنا نبهنا عليه في تخريج {هذا} الحديث، وفاتنا أن ننبه علىٰ هذا أيضاً هناك، فاقتضىٰ ذكره هنا.

(١/١٩٠) حديث الإسراء **صحيح**، وهو ملتقط من أحاديث متفرقة، **غير أن الدنوّ** المذكور في هذا السياق هو من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر الذي **غلطه الحفاظ** في ألفاظ من حديث الإسراء كما ذكر المؤلف آنفاً، ومن ذلك هذا اللفظ كما بينه الحافظ ابن كثير في تفسير (الإسراء)، ومن قبله البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٤٠ ـ ٤٤٢).

(٢/١٩٠) في الأصل: (رأىٰ).

(١٩١) قلت: لكن **في ثبوته نظر** كما تقدم آنفاً.

ومما يدل علىٰ أن الإسراء بجسده في اليقظة. قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]. والعبد عبارةٌ عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح. فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلىٰ إنكار النبوة وهو كُفر.

فإن قيل: فما الحكمة في الإسراء إلىٰ بيت المقدس أولاً؟ فالجواب ـ والله أعلم ـ: أن ذلك كان إظهاراً لصدق دعوىٰ الرسول ﷺ المعراج حين سألتْه قريشٌ عن نعت بيت المقدس، فنعته لهم وأخبرهم عن عِيرهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلىٰ السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطّلاعهم علىٰ ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطّلعوا علىٰ بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

وفي حديث المعراج دليل علىٰ ثبوت صفة العلو لله تعالىٰ من وجوه، لمن تدبره، وبالله التوفيق.

٤٠ ـ قوله: (والحوض ـ الذي أكرمه الله تعالىٰ به غياثاً لأمته ـ حق).

ش: الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضعٌ وثلاثون صحابيّاً، ولقد استقصىٰ طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير {٧٠١ ـ ٧٧٤هـ}، تغمده الله برحمته، في آخر تاريخه الكبير، المسمىٰ بـ «البداية والنهاية». فمنها: ما رواه **البخاري** {٦٥٨٠} رحمه الله تعالىٰ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قدر حوضي كما بين أيلة إلىٰ صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء**»(١٩٢) * وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «**ليردنَّ عليَّ ناس من أصحابي، حتىٰ إذا عرفتهم اختُلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(١٩٣) رواه **مسلم** * وروىٰ الإمام أحمد {١١٩٨٠} عن أنس بن مالك، قال: أغفىٰ رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه

(١٩٢) صحيح، وروىٰ منه أحمد (٣/ ٢٢٥، ٢٣٨) بإسنادين صحيحين الشطر الثاني، وزاد في أحدهما «أباريق الذهب والفضة» وهو رواية لمسلم {(٢٣٠٣)}، ورواه البخاري أيضاً (٤/ ٢٤٨ {(٦٥٨٠)}) بتمامه.

(١٩٣) صحيح، **ورواه البخاري** أيضاً (٤/ ٢٤٨، ٢٤٩ {(٦٥٨٢)}) فلو عزاه إليه المؤلف لكان أولىٰ، **فإن اللفظ له**، ولفظ مسلم (٧/ ٧٠ ـ ٧١ {(٢٣٠٤)}) بنحوه.

متبسِّماً، إما قال لهم، وإما قالوا له: لِمَ ضحكتَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة**» فقرأ «﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ . . .﴾ [الكوثر]» حتىٰ ختمها، ثم قال لهم: «**هل تدرون ما الكوثر؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هو نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة، عليه خير كثير، تردُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يُختلج العبد منهم، فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[١٩٤] ورواه **مسلم** {٤٠٠}، ولفظه: «**هو نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة...**» والباقي مثله. ومعنىٰ ذلك: أنه يَشخُب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلىٰ الحوض، والحوض في العَرَصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه، ويمنع منه، أقوامٌ قد ارتدُّوا علىٰ أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط * وروىٰ **البخاري** {٦٥٨٩} و**مسلم** {٢٢٨٩} عن جندب بن عبد الله البجلي {ـ بعد ٦٦هـ}، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنا فَرطَكم علىٰ الحوض**»[١٩٥] والفَرَط: الذي يسبق إلىٰ الماء * وروىٰ **البخاري** {(٧٠٥٠)، م(٢٢٩٠)} عن سهل بن سعد الأنصاري {ـ ٩١هـ}، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني فرطكم علىٰ الحوض، من مر عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليرِدن عليّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم**»[١٩٦] قال أبو حازم {ـ ١٤٠هـ}: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد علىٰ أبي سعيد الخدري، سمعته وهو يزيد فيها: «**فأقول: إنهم من أمتي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي**». سحقاً: أي بُعداً.

والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلىٰ من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر. وفي بعض الأحاديث: (أنه كلما شُرِب منه وهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في حالٍ من

---

(١٩٤) صحيح، وهو في «المسند» (٣/ ١٠٢ {(١١٩٨٠)}) بسند صحيح علىٰ شرط مسلم، وقد أخرجه في «صحيحه» كما ذكر المؤلف.

(١٩٥) صحيح، متفق عليه، بل هو حديث **متواتر**، قد أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» عن تسعة من الصحابة (٧٣٦ ـ ٧٤٦)، وزدت عليهم تسعة آخرين في «ظلال الجنة» (ص٣٤١ {(٧٤٦)})، مع تخريجها.

(١٩٦) صحيح، **رواه مسلم أيضاً** (٧/ ٦٦). وهو مخرج في «الظلال» (٧٤١ ـ ٧٤٣).

المسك والرضراض من اللؤلؤ [و] قضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر) فسبحان الخالق الذي لا يُعجِزه شيء. وقد ورد في أحاديث: (إن لكل نبي حوضاً، وإن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً) {ت(٢٥٧٣)}(١٩٧). جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

قال العلامة أبو عبد الله القرطبيُّ {ـ ٦٧١هـ} [رحمه الله] في «التذكرة» {٢/ ١٢٢ و١٢٦}: واختلف في الميزان والحوض: أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان، وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسيُّ {٣٢٤ ـ ٤٠٣هـ}: والصحيح أن الحوض قبل. قال القرطبي: والمعنىٰ يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم ـ كما تقدم ـ فيقدَّم قبل الميزان والصراط. قال أبو حامد الغزالي {٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ} رحمه الله، في كتاب «كشف علم الآخرة» {١٠٥}: حكىٰ بعض السلف من أهل التصنيف، أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله. قال القرطبي: هو كما قال، ثم قال القرطبي: ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض، بل في الأرض المبدلة، أرض بيضاء كالفضة، لم يُسفك فيها دم، ولم يُظلم علىٰ ظهرها أحد قط، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء. انتهىٰ. فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأخلقْ بهم أن يُحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

٤١ ـ قوله: (والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما روي في الأخبار).

ش: الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة الأولىٰ، "وهي العظمىٰ، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلواته الله عليهم أجمعين" {نهاية ٢/ ١٦٩}. في «الصحيحين» وغيرهما عن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، أحاديث الشفاعة.

منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (أُتيَ رسول الله ﷺ بلحم، فدُفع إليه منها الذراع، وكانت تعجبه، فَنَهَسَ منها نهسة، ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة،**

(١٩٧) **حسن**، أخرجه الترمذي (٢/ ٦٧) طبع الهند، وقال: «غريب» ثم ذكر أنه ورد مرسلاً وقال: «وهو أصح».

ورواه الطبراني {(٧٠٥٣)} أيضاً كما في «المجمع» (١٠/ ٣٦٣) وقال: «وفيه مروان بن جعفر السمري وثقه ابن أبي حاتم، وقال الأزدي: يتكلمون فيه، وبقية رجاله ثقات». **ثم وجدت** ما يقوي الحديث، فخرجته في «الصحيحة» (١٥٨٩) {مع «الضعيفة (٢٤٥٠)»}.

وهل تدرون مِمَّ ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد [واحد]، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلىٰ ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده {ر: ص:٧٤}، (ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك) {ر: الحجر:٢٩. ص:٧١}، فاشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟! ألا ترىٰ ما قد بلغنا؟! فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، [نفسي]، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ نوح، فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلىٰ أهل الأرض، وسماك الله ﴿عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء]، فاشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟! ألا ترىٰ ما قد بلغنا؟! فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها علىٰ قومي {ر: نوح:٢٨}، نفسي نفسي [نفسي]، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم! أنت نبي الله وخليله {ر: النساء:١٢٤} من أهل الأرض، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟! ألا ترىٰ ما قد بلغنا؟! فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كَذَباتِه ـ {ر: غ(٣٣٥٨)}ـ، نفسي نفسي [نفسي]، اذهبوا إلىٰ موسىٰ، فيأتون موسىٰ: فيقولون: يا موسىٰ! أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه {ر: الأعراف:١٤٤} علىٰ الناس، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟! ألا ترىٰ ما قد بلغنا؟! فيقول لهم موسىٰ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً {ر: القصص:١٤} لم أومر بقتلها، نفسي نفسي [نفسي]، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ، فيأتون عيسىٰ، فيقولون: يا عيسىٰ! أنت ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧٠] ـ قال: هكذا هو ـ وكلَّمتَ الناس في المهد، فاشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟! ألا ترىٰ ما قد بلغنا؟! فيقول لهم عيسىٰ: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده [مثله، ولم يذكر ذنباً]، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ محمد ﷺ، فيأتوني، فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله، وخاتَم الأنبياء، غفر الله لك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، فاشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟! ألا ترىٰ ما قد بلغنا؟! فأقوم، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي ﷻ، ثم يفتح الله عليَّ،

ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه علىٰ أحد قبلي، فيقال: يا محمد! ارفعْ رأسك، سلْ تعطه، اشفع تُشفَّع، فأقول: [يا] رب أمتي أمتي، [يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي]، فيقال: أدخلْ من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب» ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجرَ، أو كما بين مكة وبُصرَىٰ**»[(١٩٨)] أخرجاه في «الصحيحين» {خ(٤٧١٢)، م(١٩٤)} بمعناه، واللفظ للإمام أحمد.

"والعجب كل العجب، من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولىٰ، في أن يأتي الرب ﷻ لفصل القضاء، كما ورد هذا في حديث الصُّور[(١٩٩)]، فإنه المقصود في هذا المقام، ومقتضىٰ سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلىٰ آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلىٰ الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عُصاة الأمة وإخراجهم من النار. وكأن مقصود السلف ـ في الاقتصار علىٰ هذا المقدار من الحديث ـ هو الرد علىٰ الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم، فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث. وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصُّور، ولولا خوف الإطالة لسُقته بطوله، لكن من مضمونه: أنهم يأتون آدم ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، ثم يأتون رسول الله محمداً ﷺ، فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له: الفحص، فيقول الله: ما شأنك؟ وهو أعلم. قال رسول الله ﷺ: «**فأقول: يا رب! وعدتَني الشفاعة، فشفِّعني في خلقك، فاقض بينهم، فيقول** ﷻ: **شفَّعتك، أنا آتيكم فأقضي بينهم**» قال «**فأرجع فأقف مع الناس**» ثم ذكر انشقاق السماوات، وتنزل الملائكة في الغمام «**ثم يجيء الرب** ﷻ **لفصل القضاء، والكَروبيون والملائكة المقربون يسبحونه بأنواع التسبيح**» قال «**فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: إني أنصتُّ لكم منذ خلقتكم إلىٰ يومكم هذا**

---

(١٩٨) **صحيح**، وهو في «المسند» (٢/ ٤٣٥) بسند «الصحيحين»، وهو مخرج في «ظلال الجنة في تخريج السُّنة» (٨١١).

(١٩٩) يأتي ذكر خلاصته بعد سطور.

أسمع أقوالكم، وأرىٰ أعمالكم، فأنصتوا إليّ، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه...»" {نهاية ١/ ٣٣٤} إلىٰ أن قال «فإذا أفضىٰ أهل الجنة إلىٰ الجنة، قالوا: من يشفع لنا إلىٰ ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم، إنه خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، [وكلمه] قُبُلاً {ر: البقرة: ٣٢و٣٤و٣٧. الأعراف: ١٨و٢١. طه: ١١٤و١٢٠}، فيأتون آدم، فيطلبون[٢٠٠] ذلك إليه» وذكر نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، ثم محمداً ﷺ... إلىٰ أن قال: قال رسول الله ﷺ: «فآتي الجنة، فآخذ بحلقة الباب، ثم أستفتح، فيُفتح لي، فأُحيَّا ويُرحب بي، فإذا دخلت الجنة فنظرتُ إلىٰ ربي ﷻ خررت له ساجداً، فيأذن لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول الله لي: ارفع يا محمد! واشفع تشفّع، وسل تعطه، فإذا رفعت رأسي، قال الله ـ وهو أعلم ـ: ما شأنك؟ فأقول: يا رب! وعدتني الشفاعة، فشفعّني في أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله ﷻ: قد شفّعتك، وأذنت لهم في دخول الجنة...»[٢٠١] الحديث؛ رواه الأئمة: ابن جرير في «تفسيره»، والطبراني، وأبو يعلىٰ الموصلي، والبيهقي وغيرهم.

"**النوع الثاني والثالث من الشفاعة**: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمِر بهم إلىٰ النار، ألّا يدخلوها"{نهاية ٢/ ١٧١}.

"**النوع الرابع**: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم. وقد وافقت المعتزلة علىٰ هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها"{نهاية ٢/ ١٧٣}.

"**النوع الخامس**: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا[٢٠٢] الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عُكّاشة بن محصن {ـ ١٢هـ}، حين دعا له رسول الله ﷺ

---

(٢٠٠) في الأصل: (فيطلب).

(٢٠١) **ضعيف**، أخرجه ابن جرير في «تفسيره» ـ كما ذكر الشارح ـ (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، ٢٤/ ٣٠، ١٨٦ ـ ١٨٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وإسناده ضعيف لأنه من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن أبي زياد ـ وكلاهما ضعيف ـ بسندهما عن رجل من الأنصار، وهو مجهول لم يسم، وقول الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٤٨، ٤/ ٦٣): إنه حديث مشهور.. إلخ، لا يستلزم صحته كما لا يخفىٰ علىٰ أهل العلم {إنما أخرجه الطبراني في «الأحاديث الطوال» (٤٨؛ طبع المكتب الإسلامي)}.

(٢٠٢) في الأصل: (يدخلون) بدل (يدخلوا).

أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب[٢٠٣] والحديث مخرَّج في «**الصحيحين**»{خ(٥٨١١)، م(٢١٦)}"{نهاية ٢/ ١٧٤}.

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته "في عمه أبي طالب {٨٥ق هـ ـ ٣ق هـ} أن يخفف عنه عذابه {خ(٣٨٨٣)، م(٢٠٩)}[٢٠٤]"{نهاية ٢/ ١٧٤}.

"ثم قال القرطبي في «التذكرة» {٢/ ٣٢'} بعد ذكر هذا النوع: (فإن قيل: فقد قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدّثر]. قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يُخرجون منها ويدخلون الجنة).

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة كما تقدم. وفي «صحيح **مسلم**» {=١٩٦} عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أول شفيع في الجنة**»[٢٠٥]"{نهاية ٢/ ١٧٤}.

"**النوع الثامن**: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث. وقد خفي علم ذلك علىٰ الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمر علىٰ بدعته. وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً، وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ"{نهاية ٢/ ١٧٥'} أربع مرات. ومن أحاديث هذا النوع، حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[٢٠٦] رواه الإمام أحمد {٣/ ٢١٣، ر(١٤٧٣٩)} رحمه الله.

وروىٰ **البخاري** رحمه الله في (كتاب: التوحيد) {٧٥١٠}: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العَنَزيّ، قال: اجتمعنا، ناسٌ من أهل البصرة، فذهبنا إلىٰ أنس بن مالك، وذهبنا معنا بثابت [البُنَاني {ـ ١٢٣هـ}]، يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافيناه يصلي الضحىٰ، فاستأذنا، فأذن لنا

---

(٢٠٣) صحيح، متفق عليه، وهو الذي فيه قوله ﷺ: «سبقك بها عكاشة».

(٢٠٤) رواه **مسلم** وغيره من حديث أبي سعيد الخدري وغيره، وقد خرجته في «الأحاديث الصحيحة» رقم (٥٤، ٥٥).

(٢٠٥) وأخرجه أحمد أيضاً (٣/ ١٤٠) وغيره. المصدر السابق برقم (١٥٧٠).

(٢٠٦) **صحيح**، وله طرق وشواهد، «المشكاة» (٥٥٩٨ ـ ٥٥٩٩)، وهو مخرج في «ظلال الجنة» (٨٣١ ـ ٨٣٢)، وهو من الأحاديث الكثيرة التي أنكرها المدعو بـ عز الدين بليق في «منهاجه» (ص٦٢٢) تقليداً منه للربيع بن حبيب الإباضي الذي لهج بإمامته، وأكثر من عزو الأحاديث إليه، وهو لا يعرف عنه شيئاً يوجب الثقة به فضلاً عن اتخاذه إياه إماماً!!.

وهو قاعد علىٰ فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، [فقال: يا أبا حمزة! هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة]، فقال: حدثنا محمد ﷺ، قال: «**إذا كان يوم القيامة، ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفعْ لنا إلىٰ ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمٰن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسىٰ، فإنه كليم الله، فيأتون موسىٰ، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسىٰ، فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسىٰ، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذن علىٰ ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها، لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخِر له ساجداً، فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، واشفع تُشفَّع، وسل تعط، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخِر له ساجداً، فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تُشفَّع، وسل تُعط، فأقول: يا رب! أمتي أمتي! فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب! أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ مثقال حبة من خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل**». قال: فلما خرجنا من عند أنس، قلت: لو مررنا بالحسَن {٢١ ـ ١١٠هـ}، هو متوار في منزل أبي خليفة، فحدثْناه بما حدثنا به أنس بن مالك، فأتيناه، فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد {٢١ ـ ١١٠هـ}! جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نرَ مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه! فحدثناه بالحديث، فأتينا إلىٰ هذا الموضع، فقال: هيه! فقلنا: لم يزدْ لنا علىٰ هذا، فقال: لقد حدثني وهو جميعٌ، منذ عشرين سنة، فما أدري، أنسي أم كره أن تَتَّكِلُوا؟ فقلنا: يا أبا سعيد! فحدثنا، فضحك وقال: خُلق الإنسان ﴿عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء]! ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم حديثي كما حدثكم، قال: «**ثم أعود الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخِرُّ له ساجداً، فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، وقل يُسْمَعْ لك، وسل تعطه، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب! ائذن لي في من قال: لا إلـٰه إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأخرجن منها من**

قال: **لا إلـه إلا الله»**[٢٠٧] وهكذا رواه مسلم {(١٩٣)(٣٢٦)}.

وروىٰ الحافظ أبو يعلىٰ عن عثمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء**»[٢٠٨]. وفي «الصحيح» {م(١٨٣)(٣٠٢)} من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً، قال: «**فيقول الله تعالىٰ: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيُخرِج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط...**»[٢٠٩] الحديث.

ثم إن "الناس في الشفاعة علىٰ ثلاثة أقوال: فالمشركون والنصارىٰ والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم: يجعلون شفاعة من يعظّمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا. والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر. وأما أهل السُّنّة والجماعة، فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحدٌ حتىٰ يأذن الله له ويَحُد له حدّاً، كما في الحديث الصحيح، حديث الشفاعة: أنهم يأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، فيقول لهم عيسىٰ عليه السلام: «**اذهبوا إلىٰ محمد، فإنه عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، فيأتوني، فأذهب، فإذا رأيت ربي، خررتُ له ساجداً، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي، لا أُحسنها الآن، فيقول: أيْ محمد! ارفعْ رأسك، وقل يُسمع، واشفع تُشفَّع، فأقول: ربي! أمتي، فيحدُّ لي حدّاً، فأُدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد، فيحد لي حدّاً**»[٢١٠] ذكر هذا ثلاث مرات"{صفدية ٢/ ٢٩٠}.

وأما الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلىٰ الله تعالىٰ في الدعاء، ففيه تفصيل: فإن الداعيَ تارة يقول: بحق نبيّك أو بحق فلان، يقسم علىٰ الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين: **أحدهما**: أنه أقسم بغير الله. **والثاني**: اعتقاده أنَّ لأحد علىٰ الله حقّاً. ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد علىٰ الله حق إلا ما أحقه علىٰ نفسه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم]. وكذلك

---

(٢٠٧) صحيح، كما ذكر المؤلف رحمه الله من حديث أنس.

(٢٠٨) **موضوع**، رواه ابن ماجه (٤٣١٣) والعقيلي في «الضعفاء» (ص٣٣١) في ترجمة عنبسة بن عبد الرحمٰن القرشي وقال: «لا يتابع عليه» وروي عن البخاري أنه قال: تركوه. وقال أبو حاتم: كان يضع الحديث، وهو مخرج في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٩٧٨).

(٢٠٩) صحيح، أخرجه مسلم (١/ ١١٥ ـ ١١٦)، وأحمد (٣/ ٩٤).

(٢١٠) **متفق عليه** من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه {**لكن** اللفظ لـ: خ(٤٤٧٦)، م(١٩٣) (٣٢٢) ـ أنس. خ(٧٤٤٠) ـ أبو سعيد فقط}.

ما ثبت "في «**الصحيحين**» {خ(٢٨٥٦)، م(٣٠)} من قوله ﷺ لمعاذ {٢٠ق هـ ـ ١٨هـ} رضي الله عنه، وهو رديفه: «**يا معاذ! أتدري ما حقُّ الله على عباده؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقُّهم عليه ألّا يعذبهم**»(٢١١). فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق"{اقتضاء ٤٠٩} "لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير"{اقتضاء ٤٠٩}، وحقهم الواجب بوعده هو ألّا يعذبهم، وتركُ تعذيبهم معنىً لا يصلح أن يقسَم به، ولا أن يُسأل بسببه ويُتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً. وكذلك الحديث الذي في «المسند» {٣/ ٢١، ح(٧٧٨)} من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ، في قول الماشي إلى الصلاة: «**أسألك بحق ممشايَ هذا، وبحق السائلين عليك**»(٢١٢)، "فهذا حق السائلين، هو أوجبه على نفسه، فهو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يثيبهم"{قاعدة جليلة ٤٨}، ولقد أحسن القائل {من الكامل}:

ما للعباد عليه حقٌّ واجبُ ... كلَّا، ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذبوا فبِعدْله، أو نُعِّموا ... فبفضْله وهو الكريمُ الواسعُ

فإن قيل: فأي فرق بين قول الداعي: «**بحق السائلين عليك**» وبين قوله: (بحق نبيك) أو نحو ذلك؟ فالجواب: أن معنى قوله: «**بحق السائلين عليك**» أنك وعدتَ السائلين بالإجابة، وأنا من جملة السائلين، فأجب دعائي، بخلاف قوله: بحق فلان ـ فإن فلاناً وإن كان له حقّ على الله بوعده الصادق ـ فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل. فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي! وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء! وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف]. وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، ولم يُنقل عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة رضي الله عنهم، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية. "والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنّة والاتباع، لا على الهوى والابتداع"{مجموع ٢٧/ ٨٦}.

وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذورٌ أيضاً، لأن الإقسام

---

(٢١١) متفق عليه من حديث ابن عباس خرجته في «الإرواء» (٨٥٥).

(٢١٢) **ضعيف**، وقد فصلت القول في ذلك في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (٢٤).

بالمخلوق لا يجوز، فكيف علىٰ الخالق؟! وقد قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» {م(٣٢٥١)}[٢١٣]. ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم: يُكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك، حتىٰ كره أبو حنيفة ومحمد {١٣١ ـ ١٨٩هـ} رضي الله عنهما أن يقول الرجل: اللهم إني أسألك بِمَعْقِدِ العِزّ من عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف {١١٣ ـ ١٨٢هـ} رحمه الله لما بلغه الأثر فيه[٢١٤]. وتارة يقول: بجاه فلان عندك، أو يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك. ومراده: أنَّ فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا. وهذا أيضاً محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمِّنون علىٰ دعائه، كما في الاستسقاء وغيره. فلما مات ﷺ قال عمر رضي الله عنه ـ لما خرجوا يستسقون ـ: (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيَنا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا) {خ(١٠١٠)}. معناه بدعائه هو ربَّه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد أنا نقسم عليك [به]، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً، لكان جاه النبي ﷺ أعظمَ وأعظمَ من جاه العباس.

وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبتي له، وإيماني به وبسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم، ونحو ذلك. فهذا من أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع.

"فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمالٌ، غلط بسببه[٢١٥] من لم يفهم معناه: فإن أُريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً، وهذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محباً له، مطيعاً لأمره، مقتدياً به، وذلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء، قد يراد به التسبب به، لكونه سبباً في حصول المطلوب، وقد يراد [به] الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أَوَوا إلىٰ الغار، وهو حديث مشهور في «**الصحيحين**» {خ(٢٢١٥)، م(٢٧٤٣)} وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم، فتوسلوا

---

(٢١٣) **صحيح**، رواه أحمد {٢/٦٩} والحاكم {١/١٨} وصححه. «الإرواء» (٢٥٦١).

(٢١٤) قلت: هو حديث مرفوع **موضوع**، كما بينه الزيلعي في «نصب الراية» (٤/ ٢٧٣).

(٢١٥) في الأصل: (بتسببه).

إلىٰ الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: «**فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فَأَفْرِجْ عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون**»(٢١٦). فهؤلاء دَعَوُا الله بصالح الأعمال، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلىٰ الله، ويتوجه به إليه، ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٤] ″{اقتضاء ٤١٦′}.

فالحاصل: أن الشفاعة عند الله [ليست] كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر ″كما أنه شافعٌ للطالب شفعه في الطلب، بمعنىٰ أنه صار به شفعاً فيه بعد أن كان وِتراً، فهو أيضاً قد شَفَعَ المشفوع إليه، وبشفاعته(٢١٧) صار فاعلاً للمطلوب، فقد شَفَع الطالبَ والمطلوبَ منه، واللهُ تعالىٰ وِتر، لا يشفعه أحدٌ، [فلا يشفعُ عنده أحدٌ] إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه. فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالىٰ، فقال له الله: «**ارفع رأسك، وقل يُسمع، [واسأل تعطه]، واشفع تشفع**»، فيحد له حدّاً فيدخلهم الجنة؛ فالأمر كله لله. كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران] وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء، ولكن يُكرم الشفيع بقَبول شفاعته، كما قال ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله علىٰ لسان نبيه ما يشاء**»(١/٢١٨) ″{الفتاوىٰ العراقية ٢/١٠٦٦′} * وفي «الصحيح» {خ(٢٧٥٣)، م(٢٠٤)}: أن النبي ﷺ قال: «**يا بني عبد مناف! لا أملك لكم من الله من شيء، يا صفية {٥٣ق هـ ـ ٢٠هـ} عمةَ رسول الله ﷺ! لا أملك لك من الله من شيء، يا عباسُ {٥١ق هـ ـ ٣٢هـ} عمَّ رسول الله! لا أملك لكَ من الله من شيء**»(٢/٢١٨) * وفي «الصحيح» {خ(٣٠٧٣)، م(١٨٣١)} أيضاً عن النبي ﷺ: «**لا أُلفينّ أحدَكم يأتي يوم القيامة علىٰ رقبته بعيرٌ له رُغاءٌ، أو شاة لها يُعارٌ، أو رقاع تخفِق، فيقول: أغثني أغثني، فأقول: قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شيء**»(٣/٢١٨). فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول

---

(٢١٦) متفق عليه من حديث ابن عمر.
(٢١٧) في الأصل: (فبشفاعته).
(١/٢١٨) **متفق عليه** من حديث أبي موسىٰ. وهو مخرج في «الصحيحة» (١٤٦٤).
(٢/٢١٨) أخرجه **مسلم** (١/١٣٣) من حديث أبي هريرة **بأتم منه مركباً** من روايتين عنه.
(٣/٢١٨) أخرجه **البخاري** (٢/٢٦٦)، **ومسلم** (٦/١٠)، وأحمد (٢/٤٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.